روائع المسرح العالمي

٢٠

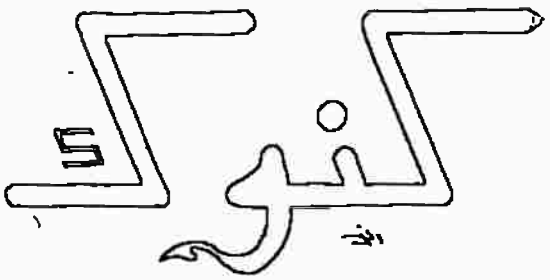

أو انتصار الطب

تأليف
جول رومين

ترجمة
يحيى حقي

مراجعة
الدكتور ريمون فرنسيس

تقديم
الدكتور محمد مندور

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

" مثلت هـذه المسرحية لأول مرة فى باريس على مسرح كوميـدى شانزليزيه يوم ١٥ من ديسمبر ١٩٢٣ تحت إدارة چانك هيرنو ، وتولى لويس چوڤيه الإخراج والديكور . وقام بأداء أدوار النساء : كوتان لامبير - ارما بيرو - ايزا رينـار - ماج بيروبيه - ى تيسيران . وقام بأدوار الرجال : لويس چوڤيه - أ . هيرو - انفرييف - جولتيه ، بن دانو - سالبس - مانى - سانت أيل ... "

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٦١

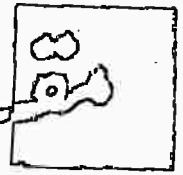

مسرحية كنوك ... والهزلية الجيدة

بقلم الدكتور محمد مندور

مسرحية «كنوك أو انتصار الطب» هى بإجماع النقاد وأساتذة الأدب خير ما كتب مؤلفها الكاتب الفرنسى المعاصر «جيل رومان»، بل هى المسرحية التى يقوم عليها الجانب الأكبر من مجد مؤلفها، فيها عرف وذاع صيته فى العالم كله، وذلك بالرغم من أنه شاعر وقصاص وفيلسوف لا كاتب مسرحيات فحسب، وكل ذلك بالرغم من أن كثيرا من أساتذة ونقاد الأدب المسرحى وبخاصة فى العالم الأنجلوسكسونى يسمون هذه المسرحية فارس Farce أى هزلية، فهى تسمية — إذا صح إطلاقها على هذه المسرحية الجيدة —

جديرة بأن تجعلنا نغير حكمنا العام على هذا النوع من المسرحيات الذى تنظر إليه دائماً نظرة تضعه فى أسفل السلم بالنسبة للأنواع الأخرى من المسرحيات ، فالمزلية ، بمعناها الدارج ، مسرحية لا تستهدف إلا الإضحاك ، وقلما يؤدى فيها الضحك وظيفة جادة ويكفيها أن تسرى عن مشاهديها ، وذلك بينما تعمر مسرحية كنوك بالحقائق النفسية والاجتماعية العميقة مغلفة فى روح السخرية المرة والتهكم اللاذع اللذين يمتاز بهما مسرح جيل رومان ، وإن تكن وقائع المسرحية تبدو مبالغا فيها إلى حد يكاد يبعـــدها عن الواقع ، وبالتالى عن المعقولية وإمكانية الحدوث وهما شرطان يتوفران عادة لما نسميه الملهاة النقدية أو الكوميديا الاجتماعية ، وهذه قضية سننظر فيها نظريا وتطبيقيا بعد أن نقدم أولا المؤلف جيل رومان إلى القراء .

ولد لويس فاريجول رومان وشهرته جيل رومان فى قرية سان جوليان شاتيل بفرنسا سنة ١٨٨٥ ، ولا يزال حيا حتى الآن ، وبعد إتمامه لمرحلة التعليم العام فاز فى مسابقة مدرسة المعلمين العليا وهى مدرســة لا يتلقى فيها الطلبة دراساتهم العليا ولا يحصلون منها على درجات علمية ، بل

يدرس طبيتها فى الجامعة مع غيرهم من الطلبة . وما هى إلا بمثابة قسم داخلى يقيم فيه الطلبة المتفوقون الذين يجتازون مسابقتها بعد إعداد أنفسهم لهذه المسابقة على إثر حصولهم على البكالوريا والانتهاء من مرحلة الدراسة الثانوية ، وهم مقيمون فى هذه المدارس مجانا ، بل ويمنحون مكافأة شهرية ، وفى هذه المدارس مكتبات كبيرة يستفيد بها طلبتها . واجتياز مسابقة مدرسة المعلمين العليا أمر شاق . ولذلك يعتبر الفائزون فى مسابقتها صفوة الشبان ويظل كل واحد منهم يعتز طول حياته بقبوله فيها . وبعد أن حصل چيل رومان على ليسانس الدولة فى الفلسفة من السوربون ، أخذ يعد نفسه للتقدم لمسابقة الأستاذية (الأجرجاسيون) وهى مسابقة ضخمة عنيفة تعقدها الجامعة كل عام ليتقدم إليها الطلبة بعد التحضير لها لمدة عامين كاملين . والغاية منها هى اختيار الشبان النابغين الذين يصلحون للتدريس بالمدارس الثانوية ، ومن يفوز فى هذه المسابقة لا يعتبر مدرسا ، بل يعتبر أستاذا بكل معانى الكلمة . ولقد فاز چيل رومان فى هذه المسابقة سنة ١٩٠٩ فأصبح بذلك أستاذا فى الفلسفة .

ومع ذلك لم ينتظر چيل رومان حصوله على لقب

الأستاذية لكى ينادى بمذهب فلسفى اجتماعى جديد سماه مذهب « الكلية » Unanisme الذى أعلنه منذ سنة ١٩٠٣ وهو مذهب أو منهج يرمى إلى تصوير الروح الموحدة التى تحرك كل مجتمع بشرى ، وقد أوحت إليه بهذه الفكرة تعاليم أساتذة علم الاجتماع الذين تلقى عنهم العلم فى السربون . من أمثال رائد علم الاجتماع الحديث العالم الكبير « دركايم » وزملائه من كبار الأساتذة مثل : « ليفى بريل » وغيره .

وبالرغم من دراسة جيل رومان للفلسفة بفروعها المختلفة وتخصصه فيها ، إلا أن مواهبه الشعرية والأدبية ، قد أخذت تظهر منذ وقت مبكر ، إذ رأيناه يشترك مع عدد من شبان جيله الأدباء والشعراء أمثال « شنفير » و « دهاميل » و « ڤيلدراك » و « أركوس » فى تأسيس ما يعرف فى تاريخ الأدب الفرنسى المعاصر : بـ « دير كورتيل » ، ولهذا الدير قصة أدبية تاريخية بالغة الطرافة خلدها أحد أعضاء الدير وهو رينيه أركوس فى صفحات شعرية جميلة نثبتها هنا لطرافتها بالرغم من سبق نشرنا لها فى المقدمة التى كتبناها لترجمتنا لكتاب « دفاع عن الأدب » لمؤلفه جورج دهاميل .

يقول رينيه أركوس : « كنا فى أوائل خريف سنة ١٩٠٦

فى يوم أحد مطير عندما اكتشفنا — ڤيلدراك وزوجته وأنا — الدار التى أصبحت « الدير » . داراً ممحوة الطلاء لم يسكنها أحد منذ سنين ولكنها جليلة المظهر بشرفاتها وواجهتها ذات الطوب الأحمر ونوافذها الخضراء . كانت محاطة ببستان أشعث جمع أشجارا من كافة العناصر ، وبأقصى البستان حديقة فواكه فيها عدد كبير من الأشجار (لقد اتخذنا من الفواكه غذاءنا صيفا بأكمله) ثم حشائش وكوخ ، وطرق عمت مسالكها الأعشاب المسرفة . وكانت مئات من الطيور قد آوت إلى هذا المنزل المهجور منذ زمن طويل . وبعد هذه الزيارة بخمسة عشر يوما كان عقد الإيجار الذى جعلنا سادة « الدير » قد وقع . وهذه الوثيقة الحزينة التى لا تزال بين يدى تحمل خمسة إمضاءات لمؤسسى الدير : رينيه أركوس ، جورج ديهاميل ، ألبير جريز ، هنرى مارتان ، شارل ڤيلدراك ، ولقد أضفنا فى قلوبنا اسم « لينار » الطباع الذى علمنا مهنتنا والذى قاسمنا حتى النهاية أيام نعيمنا وأيام بؤسنا .

وكان من أول ما حرصنا عليه أن « سمرنا » على المدخل « يافطة » كان المارّون يستطيعون أن يقرأوا عليها أبيات ربليه :

هنا . ادخلوا . ادخلوا على الرحب والسعة

ادخلوا تجدوا مأوى وحصنا .

يقى من الخطأ الأثيم الذى طالما احتال

بأسلوبه الكاذب فسمم العالم .

ادخلوا لندعم هنا الإيمان العميق .

وتحت هذه المقطوعة كتبنا المقطوعة الأخرى التى تقول :

هنا لا تدخلوا أيها المتزمتون

أيها القرود العتاق .

أيها الأقذار المتبعجون .

وهنرى مارتان ، السياسى الشاب الذى كنا قد تعرفنا إليه والذى أعجبته مشاريعنا ، هو الذى حصل لنا على أدوات الطباعة ووضعها تحت تصرفنا . وفيلدراك الذى كان متزوجا وأبا لأسرة أتى بعائلته كلها ووضع كلا منا فى غرفة الانتظار — التى كانت غرفتنا المشتركة — أعز ما يملك من أثاث .

ثم تعلمنا مهنتنا ، مهنة الطباعة : فى سرعة أدهشت « لينار » ، والمجلدان الأولان اللذان حملا شارتنا كانا « أساطير ومعارك » لجورج ديهاميل . و « مأساة الأمكنة » ، لرينيه أركوس . ولقد نشر « الدير » مايقرب من عشرين مجلدا ، ثم

إن روبير دى مونتسكيو لكى يظهر لنا عطفه ، عهد إلينا بديوان شعر له « پارسيفلورا » ولكنه طلب إلينا الكثير إذ حملنا على إعادة طبعه أكثر من مرة ، وفى النهاية ظهر أن هذه الصفقة كانت من أسوأ الصفقات التى عقدناها .

وكان الكثير من الفنانين الشبان يأتون إلى الدير ضيوفا بضاحية كورنيه ، كانوا يأتون يوم الأحد جماعات . لقد أصبحت دارنا هدفا للنزهة . وكان يزورنا أيضاً أشخاص عجيبون ، كان من بينهم رجال ذوو قمصان حمراء وأخرى سوداء ونباتيون وكائنات من هنا وهناك ، ونساء دميات ذريبات اللسان يدعوننا إلى أن نعيش وفقاً للمذهب . أى مذهب ؟ ذلك ما لم نعلمه قط على وجه التحقيق . وأراد أحد الإشراقيين أن يحملنا على بناء عدة أكواخ خشبية ببستاننا ، بلا ريب لكى نربى فيها جيلا من التلاميذ ! وذات صباح أتانا على دراجة شاب قوى عضلات الأرجل ذو عينين فى لون السماء هو جيل رومان الذى كان إذ ذاك طالبا بمدرسة المعلمين العليا (النورمال) ، أتى حاملا مخطوطة « الحياة الكلية » Vie unanime التى قرأناها فى نفس المساء بصوت مرتفع . يا لها من حماسة ! وإن تكن الصياغة ، ونثرية

الديوان ، قد حملنا بعضنا ، من لحظة إلى لحظة ، على أن يقطب حاجبيه ، إلا أننا أحسسنا جميعاً أن شاعرا قوى الأصالة ، نادر البكورة قد ولد .

وحمل الربيع إلى « الدير » مستأجرين جددا : مرسيرو وزوجته (أتيا من موسكو حيث تزوجا) ، وبرتولدمان ، ودوتمار ، وألبير دويان وزوجته ، وبعض الأصدقاء الآخرين . وكان الموسيقيون يأتون ليلعبوا فيه موسيقاهم ، والمصورون ليعرضوا لوحاتهم ، والشعراء ليسمعوا شعرهم ينشده ممثلون وممثلات ، ولقد أصبحت إحداهن فيما بعد (بلانش ألبان) زوجة لديهاميل ، ودامت المغامرة أربعة عشر شهرا . وبعد شتاء آخر قاس اضطررنا إلى أن نفترق ، وأن نترك « الدير » الذى لم نعد نستطيع أن نعيش فيه .

يجب أن يعزى الفشل إلى حداثتنا قبل كل شيء . لقد كان ينقصنا النظام ، إذ كنا لا ننصت لغير هوانا . ثم إننا كنا نتابع غايات مختلفة ، غايات لم نكن قد انتهينا كلنا إلى تحديدها على وجه دقيق .

يقيت لدىّ كلمات قليلة هى : أن الدير لم يكن قط

مدرسة شعرية . لقد كان مجرد جماعة من الرجال يريدون بعملهم أن يعيشوا معاً فى حياة حرة ، وإذا كنا قد أظهرنا عندئذ عطفاً نحو كل الشعراء والكتاب الذين لاحوا لنا موهوبين ، فإن ذلك لم يكن لغرض خفى فى أن نجندهم تحت راية ما . لم يكن لنا مذهب مشترك ، بل لقد كان يتفق أحيانا أن يسخر بعضنا من بعض ؛ بل أستطيع أن أقول مع ڤلدراك أو ديهاميل ، أنه قد لاح لنا أن فلانا من رفاقنا كان يتكلم ويكتب بلغة غريبة عن لغتنا .

لقد أظهر النقاد كثيراً من القرابات الدقيقة بين ڤلدراك ورومان و ديهاميل وبينى ، ولن يخطر ببال أحد منا أن ينكرها . بل إنها بلا ريب قد امتدت إلى شعراء آخرين : چوف وشنثير ، وديرتان . . . الخ ؛ ولكنه لم تكن هناك مدرسة أصلا ، لقد كنا جميعاً نبغض أشد البغض روح التجنيد » .

ورينيه أركوس على حق فيما يقرره من أن جماعة الدير لم تكون مدرسة أدبية متفقة فيما بينها على فلسفة إنسانية أو فنية ، وذلك بالرغم من سيطرة شخصية : چيل رومان ، ومحاولة فرضه مذهب الكلية على الجماعة كلها ، ولقد

أوضحت فى مقدمتى لكتاب « دفاع عن الأدب » كيف أن جورج ديهاميل مثلا كان ينفر كل النفور من فلسفة چيل رومان وبخاصة عند ما كانت تتطرق إلى السلوك الأخلاقى والاجتماعى على نحو ما نحس من بعض عبارات چيل رومان الخارجة مثل قوله : « لا تفر من المزاوجة ، بل احذر أن تكون أحد اثنين على نحو دائم » أو « إن الأسرة والزواج أحجار عثرة تقوم فى سبيل الكلية » . ومع كل ذلك ، فإن طرفى النقيض من ناحية الفلسفة الأخلاقية الاجتماعية وهما جورج ديهاميل وچيل رومان ، هما اللذان اكتسبا شهرة عالمية واسعة بضخامة إنتاجهما وجودة الكثير منه .

ونقصر حديثنا هنا على چيل رومان ، فنذكر أن مؤلفاته الكثيرة تتوزع بين ثلاثة فنون أدبية كبيرة :

١ ــ القصة الطويلة مثل : « القرية التى بعثت » سنة ١٩٠٦ ، و« سلطات باريس » سنة ١٩١١ و « موت إنسان » سنة ١٩١١ و « الأصدقاء » سنة ١٩١٣ و « دونو جوتونكا » سنة ١٩٢٠ وثلاثية : « الروح أو لوسين » سنة ١٩٢٢ و « إله الأجساد » سنة ١٩٢٨ و « عند ما السفينة . . . »

سنة ١٩٢٩ ، ثم سلسلة : « الرجال الطيبون » التى تعتبر أشهر قصصه .

٢ ــ دواوين شعر مثل : « روح الناس » سنة ١٩٠٤ و « الحياة الكلية » سنة ١٩٠٤ : ١٩٠٧ . و « أناشيد وصلوات » سنة ١٩١٣ و « أغنية عشر سنوات » من سنة ١٩١٤ : ١٩٢٤ وقد نشرها سنة ١٩٢٨ كما ألف مع شنفير سنة ١٩٢٣ كتابا عن « نظم الشعر » عرض فيه منهجه فى موسيقى الشعر التى يراها فى تكرار صوت بسيط قد يكون صائتا أو صامتا وليس من الضرورى أن يأتى فى آخر البيت .

٣ ــ سلسلة من المسرحيات مثل : « الجيش فى المدينة » سنة ١٩١١ و « كوميدير العجوز » سنة ١٩٢٠ و « السيد تروهاديك مأخوذا بالدعارة » سنة ١٩٢٢ ، و « كتوك أو انتصار الطب » سنة ١٩٢٣ و « زواج السيد تروهاديك » سنة ١٩٢٥ و « البراقة » سنة ١٩٢٥ و « الديكتاتور » سنة ١٩٢٥ و « ديمتريوس » سنة ١٩٢٦ و « أميديه » سنة ١٩٢٦ و « چان سيْ الصراحة » سنة ١٩٢٦ . وفى سنة ١٩٢٩ اشترك مع ستيفان زفايج فى اقتباس مسرحية « فولپونى » عن

الشاعر الإنجليزى بن جونسون ، وهى المسرحية التى عرضت على جمهور القاهرة باسم « عبيد الذهب » ، ثم مسرحية « چان موس » سنة ١٩٣٠ و « دولوجو » سنة ١٩٣١ و « الملك المقنّع » فى نفس العام .

وأما فى مجال التفكير الفلسفى فله فضلا عن نظرية «الكلية» ، نظرية أخرى تقول إن بعض الأشخاص يستطيعون أن يبصروا دون الاستعانة بالأعين . وقد بسط هذه النظرية فى كتابين سمى أحدهما : « الرؤية الخارجة عن الحدقة » أى اللاحدقية ، وسمى الآخر « حاسة الرؤية بلا أعين »

ويجمع النقاد على أن تفوق چيل رومان الحق ، إنما كان فى مجال المسرح ، وذلك بفضل روحه الفكهة اللاذعة ، وسخريته النافذة فى نقد الأخلاق ، كما يجمعون على أن مسرحية « كنوك أو انتصار الطب » هى رائعته الفذة التى عرف بها فى العالم أجمع ، ومن الواضح أن الروح الفكهة اللاذعة لايوانيها فن الشعر ، وبخاصة إذا كان صاحبها مكوناً تكويناً فلسفياً يحمله على التحليل النظرى الذى لايتسع له عادة وعاء الشعر ، وقد تصلح له القصة ، ولكن مجاله الحق

هو الحوار المسرحى ، وهو ما نبغ فيه جيل رومان أكثر من نبوغه فى فن القصة أو فى فن الشعر حيث يغلب على دواوينه التفكير الفلسفى الجاف ، بل المتعسف أحياناً فضلا عن النثرية التى تذهب بطلاوة الشعر وجماله .

كنوك وفن الهزليات

ينعقد الإجماع على أن هذه المسرحية من الروائع العالمية ، ومع ذلك لاحظت أن الأساتذة والنقاد الأنجلو سكسونيين يسمونها هزلية Farce على نحو ما ورد فى الموسوعة الأبجدية لأكسفورد المعروفة باسم : المرشد إلى الأدب الفرنسى Companion to French literature فإلى أى مدى ينطبق عليها هذا الوصف ؟

تتلخص هذه المسرحية فى السخرية اللاذعة من الطب والأطباء . وهو موضوع من مواضيع الكوميديا التقليدية وبخاصة منذ عصر موليير الذى طالما سخر من الأطباء ومن مرضى الوهم ، ولكن مسرحية « كنوك » لاتنتقد واقعاً فعلياً أو ممكن الوجود ، بل تفترض فروضاً مسرفة وإن يكن هدفها

النهائى طبعاً ، هو نقد حيل بعض الأطباء لجمع المال عن طريق الإيهام بالمرض .

فالدكتور باربالید عمل فى عيادته بقرية « سان موريس » سنين طويلة قد تبلغ الربع قرن ، ومع ذلك لم يصب نجاحا ، ولا جمع ثروة مما اضطره إلى البحث عن مشتر لهذه العيادة لكى ينتقل للعمل فى مدينة كبيرة هى ليون ، واهتدى إلى كنوك ليبيعه هذه العيادة ، بل ويبيعه أيضاً السيارة العتيقة التى كان يستخدمها فى تنقلاته بالريف . ونحس من احتيال باربالید على إقناع كنوك بصلابة السيارة المستهلكة وتفضيلها على السيارات الجديدة التى يزعم أنها مصنوعة من الصفيح — نحس بأن باربالید هو الآخر رجل محتال ، بل وأن زوجته وسائق عربته يتآمران معه فى هذا الاحتيال وتبدأ المسرحية ذات الفصول الثلاثة بمشهد العربة العتيقة وقد ركبها الدكتور باربالید وزوجته وكنوك ليصعدوا الجبل إلى قرية سان موريس ، وكلما أصاب السيارة عطل اجتهد باربالید وزوجته فى إيهام كنوك بأن السائق يريد إراحة السيارة بعض الوقت ، بل ويحاولان صرفه عن ملاحظة ما يجريه فيها السائق من إصلاح ، حتى إذا وصلوا إلى القرية الجبلية ، سلم

بارباليد العيادة إلى كنوك ، وحرر معه عقـــد البيع للعيادة والسيارة ، على أن يدفع كنوك ثمنهما أقساطاً على فترات محددة .

وفى القرية يعلم كنوك أن سبب فشل بارباليد يرجع إلى أنه لم يكن يتكالب على مهنته ، بل كان ينفق الكثير من وقته للنزهة ، أو فى ألعاب التسلية بفندق القرية ، كما كان يهون على المرضى خوفهم ، ويصف لهم أبسط الأدوية وأرخصها ويدعوهم إلى الثقة بقدرة الجسم على المقاومة الذاتية حتى ضج صيدلى القرية من كساد بضاعته ، بل وانصرف أهل الناحية جميعاً تقريباً عن الطبيب وعيادته ، مما دعا كنوك إلى أن ينتهج نهجاً مضاداً استخدم فيه كافة الحيل والوسائل الجهنمية لابتزاز المال ، فابتدأ بأن استدعى الصيدلى وأقنعه بأن العمل سينشط فى صيدليته وأوصاه بأن يجلب إليها الأدوية الغالية الثمن كما استدعى المسيو برنار معلم القرية واتفق معه على أن يزوده بمجموعة من الأمراض على أن يعرضها فى محاضرات يلقيها بمقر المدرسة على الجمهور عن شتى الأمراض وبخاصة الأمراض المحلية ، موضحاً المعلومات التى يقدمها إليه كنوك

بالصور التى يعرضها بالفانوس السحرى . واستدعى أيضاً منادى المدينة لكى يكلفه بأن يطوف بالقرية والقرى المجاورة معلنا أن طبيب القرية الجديد ، قد قرر أن يفتح عيادته مجانا يوم السوق من كل أسبوع وهو يوم الإثنين لفحص جميع سكان المنطقة وطمأنتهم على حالتهم الصحية . وما إن أتم كنوك ترتيباته الجهنمية حتى أخذ جميع أهل المنطقة يتوافدون على عيادته للفحص المجانى يوم الإثنين . وابتداء من هذه اللحظة تمر أمامنا طائفة من المشاهد المضحكة اللاذعة التى نرى فيها عدداً من الرجال أو النساء يدخلون عيادة كنوك وهم أصحاء ، أو على الأقل بادى الصحة ويخرجون منها مرضى أو مؤمنين أنهم مرضى بعد أن أوهمهم كنوك بكل ذلك وأمرهم بأن يخرجوا من عيادته إلى منازلهم ليأووا فى فراشهم على أن يعودهم فيه ، ويطب لهم ، بحيث يتولد فى نفوسنا إحساس واضح بأن أهل القرية وضواحيها قد لزموا جميعاً الفراش ، بل ويحل موعد القسط ، ويصل الدكتور باربالييد إلى سان موريس ليتسلم من كنوك هذا القسط ، ويعلم باربالييد وهو فى الفندق بالنجاح الفظيع الذى أحرزه

كنوك حتى صعب على باربالید أن يجد غرفة خالية بالفندق الذى تحول إلى شبه مستشفى ، لولا توسط كنوك لدى إدارة الفندق . ويندهش باربالید مما يرى ويسمع ، ولكنه لا يكاد يلتقى بكنوك ويدور بينهما الحديث ويستمع إلى فلسفة كنوك التى تزعم أن الأصحاء ليسوا إلا مرضى غافلين حتى يساوره هو الآخر الشك فى أنه مريض ، ولكن كنوك يعتذر بكثرة أعماله ومواعيده عن فحص باربالید فورا ويعده بإجراء هذا الفحص بعد الظهر . وهنا تنتهى المسرحية ، أى بعد أن أشعرنا المؤلف بأن كنوك لم ينجح فى إلزام جميع أهل القرية وضواحيها فراش المرض فحسب ، بل ونجح فى إيهام الدكتور باربالید نفسه بأنه مريض غافل عن مرضه .

وشخصية « كنوك » هى التى تعطى المسرحية طابع الهزلية .

فنحن نعلم منذ الفصل الأول ومن الحوار الذى يجرى بين كنوك والدكتور باربالید ، أن كنوك لم يدرس الطب فى جامعة ، ولم يحصل على مؤهل ، وإنما زاول المهنة

احتيالا ، وها هو الحوار الشيق اللاذع الذى نعلم منه ذلك :

الدكتور : هذا كلام غير مفهوم .

كنوك : بالعكس هى مسألة فى غاية البساطة ، ومنذ عشرين سنة مضت تخليت مضطرا عن دراسة الآداب واشتغلت بائعاً فى قسم « الكرفتات » فى متجر كبير بمرسيليا ، ثم فقدت عملى وأخذت أتسكع فى الميناء وقرأت إعلاناً عن سفينة حمولتها ١٧٠٠ طن مسافرة إلى الهند تطلب مشرفاً صحياً ولا تشترط أن يكون حاصلا على لقب دكتوراه ، فماذا تفعل لو كنت مكانى ؟ .

الدكتور : لا أفعل شيئاً بطبيعة الحال .

كنوك : أفهم هذا منك ، فأنت لا تعشق مهنة الطب ، أما أنا فقد تقدمت ، وإذ كنت أمقت المواقف المريبة — فقد أعلنتهم منذ دخولى قائلا : « أيها السادة كنت أستطيع أن أزعم لكم أننى دكتور ولكنى فى الوقع لست دكتوراً ، بل أصرح لكم بما هو أدهى — إننى لا أعرف فى أى موضوع سأكتب رسالتى » ، فكانت إجابتهم أنهم لا يتمسكون بلقب دكتور ، وأن موضوع رسالتى

لا يهمهم فى شىء ، فرددت على الفور : « مع الاعتراف بأننى لست دكتورا ، إلا أننى أود — لأسباب تتعلق بالكرامة وحسن النظام — أن يطلق على فى السفينة لقب دكتور » ، فقالوا إن هذه المسألة طبيعية ، ومع ذلك لبثت مدى ربع ساعة أشرح لهم الحجج التى زحزحتنى عن التمسك بالصدق والأمانة وحملتنى على المطالبة بلقب لا حق لى فيه ولا يرضاه ضميرى . وهكذا أطلت الحديث حتى لم يبق أمامهم سوى ثلاث دقائق للبت فى تحديد مرتبى .

الدكتور : ولكن أصحيح أنه لم يكن لديك أى إلمام بالطب ؟

كنوك : إفهمنى ! إننى كنت منذ طفولتى أقرأ بشغف فى الصحف كل إعلان عن علاج طبى أو دواء ، وإذا اشترى أبواى علبة حبوب أو زجاجة دواء سائل ، نزعت الورقة الملفوفة عليها وقرأت شرحها لطريقة الاستعمال ، فإذا بلغت التاسعة من عمرى حتى كنت أحفظ عن ظهر قلب نصوصاً طويلة عن عوارض الإمساك ، وأستطيع

الآن أن أتلو عليك من الذاكرة نص خطاب بديع أرسلته الأرملة : م . ع . من مدينة بورج عام ١٨٩٧ إلى المعمل الأمريكى الذى ينتج دواء ضد الإمســاك اسمه : « الأعشاب السحرية الأكيدة المفعول » . أتريد ؟ ! . .

الدكتور : لا تتعب نفسك إننى أصدقك .

وإذن فكتوك ليس طبيبا بل محتالا ، ابتدأ سلسلة احتيالاته باللعب على لفظة دكتور ليوهم أنه طبيب ، وإن لم يحصل على درجة الدكتوراه . وهذا هو جانب الهزل فى المسرحية ، ولكن أيبيح لنا ذلك تسمية المسرحية كلها فارس Farce ؟ وليست المسألة مسألة اصطلاح أو خانة نضع فيها هذه المسرحية أو ننقلها إلى خانة أخرى ، بل مسألة فنية هامة ، لأن وصف مسرحية بأنها هزلية يخرجها من الأدب الرفيع إلى الأدب الرخيص . وللبت فى ذلك نوضح أولا مدلول لفظة هزلية وتاريخ فن الهزليات فى إيجاز .

لقد اصطلحنا فى لغتنا العربية الحديثة على ترجمة لفظة كوميديا بلفظة ملهاة ، وأما لفظة فارس Farce فنقترح

ترجمتها بلفظة هزلية ، تمييزاً لها عن الملهاة أى عن الكوميديا.

ولفظة فارس Farce ، معناها الاشتقاقى فى اللغة الفرنسية « الحشو » الذى يحشى به ورق العنب أو « الكوسة » مثلا ! وقد تطرقت هذه اللفظة إلى لغة المسرح منذ القرون الوسطى إذ أطلقت على مشاهد هزليـــة كانت تعرض فترات الاستراحة بين كل فصل وآخر من فصول المسرحيات الدينية التى كانت منتشرة فى القرون الوسطى ، وشيئاً فشيئاً أخذت تلك المشاهد الهزلية تستقل بذاتها لتكون فناً مسرحياً قائماً بنفسه وبذلك نشأت المسرحية التى تسمى الآن بالفارس ؛ أى الهزلية ، وهى مسرحية لا هدف لها غير الإضحاك . وفى الغالب تعتمد فى ذلك على النكات اللفظية والحركات البهلوانية والمواقف غير المعقولة الخالية من كل دلالة . وفن الهزلية كثيراً ما يصعب تمييزه فى تاريخ الأدب الدرامى عن أنواع أخرى من المسرحيات الفكاهية الخفيفة ، السطحية الهدف ، مثل ما عرف فى إيطاليا ، وانتقل منها إلى البـــلاد الأوربية الأخرى باسم الكوميديا الفنية ، وهى كوميديا كان الممثلون يرتجلونها ؛ ومن أشهر هؤلاء الممثلين السيد « بنطلون » والسيد

« سكاراموش » ، ثم نوع آخر ازدهر فى أحد و ديان فرنسا وعرف باسم هذا الوادى وهو فن « الثودفيل » .

والآن هل نعتبر مسرحية « كنوك » كوميديا نقد اجتماعى وأخلاق ؛ أى « ملهاة » أم نعتبرها هزلية لاتستهدف غير الإضحاك بالوقائع والمواقف غير المعقولة التى يضيع معها كل هدف اجتماعى أو أخلاقى .

الواقع أن هذه المسرحية الرائعة تتضمن شخصيات وأحداثاً تبدو بعيدة عن واقع بلد متحضر مما يقربها من الهزلية ، ولكننا نلاحظ من جهة أخرى أن ما يبدو غريباً فيها قد يكون مجرد تجسيم ومبالغة لواقع يستحق النقد والسخرية ، وهى فوق كل ذلك تتضمن فلسفة نفسية واجتماعية لاشك فيها ، فمن الناحية النفسية ، نحس فيها بتحليل دقيق لقدرة الإنسان على إيهام غيره وإيهام نفسه ، بل إن فكرة كنوك الأساسية التى يسميها رسالته لنيل الدكتوراه ، قد لا تخلو من صدق ، وهى زعمه ، بأن الأصحاء مرضى غافلون ، فهذه حقيقة كثيراً ما تشهد بها تجارب الحياة وإن يكن التعميم يفسدها ، كما يمكن أن يفسد كافة الأحكام ، والمسرحية فوق ذلك تتخللها الفلسفة الاجتماعية التى تلقاها چيل رومان عن أساتذة علم

الاجتماع فى السوربون كدوركايم وليڤى بريل وغيرهما ، ففيها دراسة وتحليل لروح القطيع عند الجماهير وكيف يمكن استهواؤها بأيسر الطرق الاحتيالية وبخاصة بالمحاضرات المصورة التى ألقاها برنار معلم القرية عن الأمراض وأعراضها وعواقبها ومضاعفاتها ، وكل ذلك فضلا عن إظهار المؤلف لأخطار شهوة جمع المال على المجتمع عند ما يتضافر الجشعون أمثال كنوك وصيدلى القرية على ابتزاز أموال الناس بإيهامهم أنهم مرضى ، وإن يكن المؤلف قد بالغ فى سطوة هذا الإيهام الذى ألزم أهل الناحية كلهم فراش المرض ، وكأن چيل رومان ينتقد الاتجار بالطب ويكاد يلفت الأنظار إلى ضرورة تأميمه .

وأما من الناحية الفنية الخالصة ، فالمسرحية محكمة البناء ، وشخصياتها دقيقة التصوير ، وحوارها خفيف براق ، بالرغم من عمق المعانى النفسية والاجتماعية والأخلاقية التى يحملها ، وفى كل هذا ما يرفع المسرحية إلى مستوى الأدب الجاد بحيث نستطيع أن نخلص إلى أننا سواء جارينا الأنجلوسكسونيين فاعتبرنا هذه المسرحية من نوع الهزليات الجيدة ، أو جارينا الفرنسيين فاعتبرناها ملهاة من نوع الكوميديا النفسية الاجتماعية ، فإننا على أية حال لا نستطيع أن ننكر النجاح الجماهيرى الضخم الذى

حازته منذ أن عرضت أول مرة على كوميديا الشانزليزيه سنة ٩٢٣ وقام بإخراجها وتمثيل دور كنوك فيها ، الممثل والمخرج الفرنسى العالمى الصيت : لويس جوفيه . ومنذ ذلك التاريخ احتلت هذه المسرحية مكاناً ثابتاً فى رصيد أى ريبرتوار للكثير من المسارح العالمية فى كافة بلاد العالم .

محمد صدوه

شخصيات المسرحية

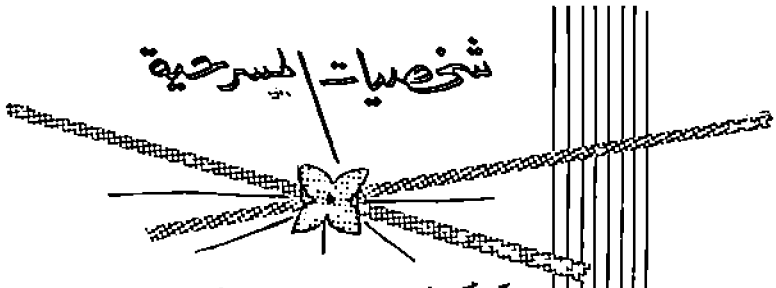

* كنول
* الدكتور باربالیو
* موسكيه
* برنار
* منادي البلدة
* فتى قروي - الأول
* فتى قروي - الثاني
* بسيبوت
* جان
* مدام باربالیو
* مدام سيمون
* السيدة ذات الثياب السود
* السيدة ذات الثياب البنفسجية
* الخادمة
* صوت ماريت بين همهمة من أهالي البلدة

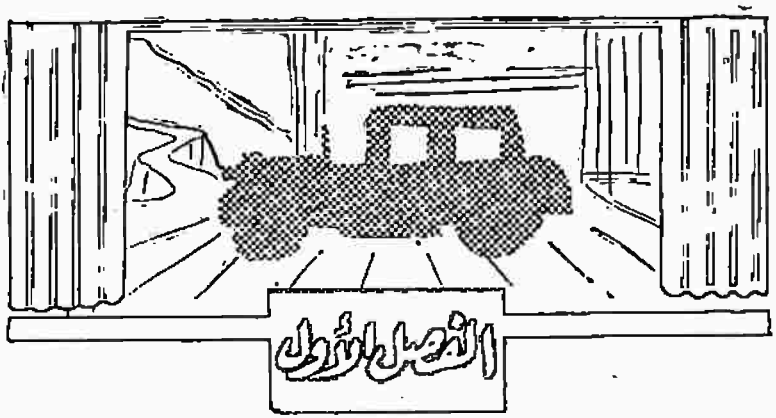

« تجرى حوادث هذا الفصل داخل أو حول سيارة من طراز قديم جداً يرجع لسنة ١٩٠٠ – ١٩٠٢ هيكل ضخم (هى فى الأصل من طراز « فيتون مزدوج » وحولت فيما بعد إلى طراز يشبه « الطوربيد » بفضل إضافة ألواح معدنية عليها) مستلزمات السيارة من النحاس كبيرة الحجم ؛ ومقدمها حيث المحرك على شكل صندوق صغير ، وتتحرك السيارة من مكانها أثناء بعض مشاهد هذا الفصل ويكون التحرك من جوار محطة صغيرة للسكة الحديد ثم تصعد بعد ذلك فى طريق جبلى ... »

المشهد الأول

كنوك ــ الدكتور باربالبد ــ مدام باربالبد ــ چان

الدكتور باربالبد : أهذا متاعك بتمامه يا زميلى العزيز ؟

كنوك : نعم هذا كل متاعى يا دكتور باربائيد .

الدكتور : سيضعه چان بجانبه ، المقعد الخلفى يسعنا نحن الثلاثة بسهولة ، السيارة فسيحة والكراسى الصغيرة الإضافية مريحة ، شتان بين هذه السيارة والسيارات الحديثة القميئة .

كنوك : [يلتفت إلى چان وهو يضع الصندوق] خذ بالك من هذا الصندوق فقد وضعت فيه أجهزة سهلة الكسر .

[يبدأ چان فى تكويم متاع كنوك]

مدام باربالبد : هذه سيارة سأتحسر عليها طويلا إذا غلبتنا الحماقة وبعناها ؟

[كنوك يتأمل السيارة بدهشة]

الدكتور : لأنها فى الحقيقة طوربيد ومع طراز الفيتون المزدوج القديم .

كنوك : نعم . . نعم . .

[يختفى المقعد الأمامى كله تحت أكوام المتاع]

الدكتور : انظر إلى متاعك كيف اتسع له المقعد وبقيت لحان جلسته المطمئنة ، بل ليتك جئت بمتاع أكثر لتدرك أن هذه السيارة تعنى بكل المطالب .

كنوك : هل بلدة سان موريس بعيدة ؟

الدكتور : على بُعْد أحد عشر كيلو مترا ، ولا يخفى عليك أن بعدها عن السكة الحديد بهذا القدر نعمة كبيرة لأنه يستبقى إخلاص المرضى لطبيبهم فلا يزوغون منه لالتماس العلاج فى عاصمة الإقليم .

كنوك : ليس بينها إذن وبين المحطة عربة نقل ؟

الدكتور : نعم هناك عربة نقل ولكنها فى حالة يرثى لها ، بحيث تحبب إليك المشى بدل الركوب .

مدام باربالييد : السيارة هنا لا غنى عنها .

الدكتور : بخاصة للأطباء .

[كنوك متمسك بمسلك مهذب متحفظ]

چان : [إلى الدكتور] هل أدير المحرك ؟

الدكتور : نعم يا بنى !

[چان ينهمك فى معالجة السيارة : يفتح غطاء المحرك ، ويفك البوچيهات ، ويصب البنزين . . الخ . . الخ . .] .

مدام باربالييد : [إلى كنوك] إن المناظر الطبيعية على جانبي الطريق جميلة ، وقد سبق للكاتب زينائيد فلوريو أن وصفها فى قصة من أحسن قصصه ، قد نسيت اسمها ،

[تركب السيارة وتقول لزوجها :] ألا ترى أن يكون لك الكرسى الصغير الأمامى وهكذا يجلس الدكتور كنوك إلى جانبي ليتملى من المناظر التى نمر بها ؟

[كنوك يجلس إلى يسار مدام باربالييد]

الدكتور : السيارة فسيحة بقدر كاف والمقعد الخلفى يتسع لجلوس ثلاثة براحة ، غير أنه يحسن للراكب أن يملك حركته ليتمتع برؤية المناظر من حـــوله [يقترب من چان] كل شىء على ما يرام ؟ هل فرغت من صب البنزين ؟ وفى السلندرين الاثنين ؟ لعلك لم تنس أن تنظف البوچيهات قليلا ، فهذا أحوط بعد مشوار طوله أحد عشر كيلومترا ، ولف « الكاربوراتير » بقطعة من القماش أو بمنديل كبير فإنه خير من هذه الخرقة [يقول وهو يكر راجعا] بديع ! بديع ! [يصعد إلى السيارة] إننى أجلس على الكرسى الأمامى الصغير الفسيح ، ومع ذلك فهـــو بمثابة فوتيل رحب يفرد ويطوى .

مدام باربالييد : سيظل الطريق يتوالى صعوده حتى نبلغ

سان موريس ، والذهاب إليها على الأقدام
وبهذا المناخ كله عذاب عظيم ، أما بالسيارة
فهو متعة ساحرة .

الدكتور : كنت يا زميلى العزيز فى الأيام الخوالى أداعب آلة الشعر ، ونظمت أنشودة من أربعة عشر بيتاً تتغنى بجمال الطبيعة فى هذه الأرجاء التى ستتكشف لنا ، والمصيبة أننى نسيتها :

وقيعان تتوه العين فيهـــا
يرفرف فوقها عـــلم الجمال

[جان يدير المانيفلا بجهد المستميت]

مدام باربالييد : يا ألبرت لك منذ سنين إصرار على رواية هذا البيت وفيه كلمة « قيعان » بدلا من كلمة « أغوار » كما كان فى الأصل .

الدكتور : صحيح ، صحيح ، [يسمع صوت انفجار] التى سمعك يا زميلى العزيز إلى المحرك لتتبين كيف أنه مطواع لا يحرن ، فما احتاج إلا إلى لفة أو لفتين من المانيفلا حتى « شفط »

البنزين ، ثم ها أنت تسمع انفجاره مرة ومرة أخرى ، هيا هيا . فإذا بنا نسير . .

[جان يحتل مقعده وتتحرك السيارة وتتتابع المناظر شيئاً فشيئاً] .

الدكتور : [بعد فترة صمت] صدقني يا خـلّـفي العزيز [يدق على كتف كنوك] نعم فقد صرت من هذه اللحظة خلفاً لي ، صدقني حين أقول لك إنك أبرمت صفقة طيبة ، نعم ، فجميع مرضاى هم منذ هـــذه اللحظة زبائنك ، حتى ولو صادفنا ونحن نقطع الطريق مريض ولحنى رغم أن السيارة تمرق أمامه بسرعة خاطفة وطلب إلى أن أعالجه فإنني سأتنحى وأقول له رافعاً صوتي : « أخطأت مقصدك يا سيدى ، فهذا هو طبيب البلد[يشير بسبابته إلى كنوك] ولن أخرج عن مخبئي [تتوالى انفجارات المحرك] إلا تلبية لدعوة أصولية منك للاشتراك معك في كونسولتو لتغليب رأى على رأى

[انفجارات أخرى من المحرك] من حسن حظك أنك وقعت على رجل يتخلى عن عمله لا لشيء إلا للتلذذ لتحقيق نزوة طافت برأسه .

مدام باربالياد : لقد أقسم زوجى أن يختم حياته العملية فى مدينة كبيرة .

الدكتور : إننى أشتهى أن أنحنى أودع الجمهور للمرة الأخيرة من فوق مسرح كبير ، وهذا منى غرور فيه شيء من السخف : أليس كذلك ؟ إننى أحلم بباريس ، ولكن قد أقنع بليون .

مدام باربالياد : وذلك بدلا من أن يجمع له هنا ثروة مضمونة فى طمأنينة وهدوء .

[كنوك يتأملهما تارة ، ويستغرق فى أفكاره تارة ، ويلقى نظره إلى المشاهد من حوله تارة أخرى]

الدكتور : لا تسرف فى السخرية منى يا زميلى العزيز ، فإنما بفضل هذه النزوة التى طافت برأسى

قد أتيح لك أن ترث عيادتى لقاء تعويض زهيد . .

كنوك : أهذا حكمك ؟

الدكتور : إنها الحقيقة السافرة .

كنوك : على كل حال فأنا لم أساومك قط .

الدكتور : حقاً لقد أحببت فيك ترفعك عن اللجاجة ، وأعجبنى منك جداً أنك بدأت المفاوضة بالمراسلة أولا حتى إذا تم الاتفاق على جميع التفاصيل جئت بنفسك ، وهكذا أبرمت الصفقة ، كما بدا لى ، على طريقة كرام الناس ، أو قل على الطريقة الأمريكانية . حقاً أهنئك على هذه النعمة التى هبطت عليك ، فالعيادة لما دخل ثابت لا يتعرض لأزمات مفاجئة .

مدام باربالييد : وليس بجانبك منافس آخر لك .

الدكتور : والصيدلى الوحيد لا يجاوز قط حدود مهنته . .

مدام باربالید : وليس هنا شيء يغريك بإنفاق النقود .

الدكتور : لن تجد وسيلة لهو واحدة تستنزف جيبك .

مدام باربالید : فى ستة أشهر تكون قد اقتصدت ضعف ما أنت مدين به لزوجى .

الدكتور : وسأرضى أن تدفع هذا الدين على أربعة أقساط فى السنة . أه ! لولا الروماتيزم الذى تعانى منه زوجتى لحممت أن أعدل عن الصفقة .

كنوك : مدام باربالید مصابة بالروماتيزم ؟

مدام باربالید : نعم ، مع الأسف .

الدكتور : الجو هنا جو صحى جداً بصفة عامة ، ولكنه لا يلائم زوجتى بصفة خاصة .

كنوك : هـــل فى البلد كثير من المصابين بالروماتيزم ؟

الدكتور : لك أن تقول إنه المرض الشائع عندنا .

كنوك : هذا أمر فى نظرى يثير غاية الاهتمام .

الدكتور : نعم عند من يريد التخصص فى دراسة الروماتزم .

كنوك : [بهدوء] كنت أفكر فى الزبائن .

الدكتور : حاشا وكلا ، فكما أنت لا يخطر ببالك أن تستدر المطر بقرع أجراس الكنائس ، فكذلك أهل البلد هنا ، هيهات لهم أن يخطر ببالهم طلب الشفاء من الروماتزم بالذهاب إلى الطبيب !

كنوك : ولكن هذا شىء يؤسف له .

مدام باربالبد : انظر يا دكتور ! هذا المنظر أمامك كم هو بديع . . كأننا فى سويسرا .

[انفجارات متعاقبة من المحرك]

چان : [يهمس فى أذن الدكتور باربالبد] يا دكتور ! المحرك « عطلان » ، يلزمنى أن أفك ماسورة البنزين .

الدكتور : [لچان] طيب . . طيب . . [للآخرين]

كنت بالفعل أريد أن أقترح عليكم
التريث هنا لحظة .

مدام باربالید : ولماذا ؟

الدكتور : [يصوب لها نظرات ذات معنى] هذا المنظر
الجميل . . ألا . . ألا يستحق أن نقف
عنده ؟

مدام باربالید : إذا كنت تريد التريث فالمنظر المرتفع
القادم أكثر جمالا . . [السيارة تقف ومدام
باربالید تدرك حقيقة الأمر]

الدكتور : لا ضير أن نتريث هناك أيضاً قليلا
نتريث ، ولم لا ؟ نتريث مرتين ، وثلاث
مرات ، بل أربع مرات كما نحب
ونهوى . من حسن الحظ لسنا فى سباق
[موجهاً الكلام لكنوك] هل انتبهت
يا زميلى العزيز إلى هـــذه السيارة كيف
وقفت بتؤدة وانصياع ، فزمام سرعتها
وأنت تقودها يظل دائماً فى يدك ، وهذه

مسألة هامة جـداً فى الطرق الجبلية
[يستطرد وهم ينزلون من السيارة] ستنضم
يا زميلى العزيز فى وقت أسرع مما تظن
إلى صفوف أنصار السفر بالسيارات ،
ولكن حذار من سيارات اليوم الرديئة ،
إنها حطام مصنوع من التسفيح لا من
الصلب .

كنوك : إن لم ينجدنى مرض الروماتزم فقد
يسعفنى بدلا منهم مرضى الالتهاب الرئوى
ومرضى النزلات الشعبية .

الدكتور : [لك جان] اغتنم عزمنا على الوقوف
ونظف ماسورة البنزين [لك كنوك]
ماذا تقول ؟ التهابات رئوية ونزلات
شعبية ؟ هذه أمراض نادرة عندنا ، فالجو
هنا قاس كما تعلم ، إذا ولد الطفل ضعيفاً
هزيلا مات قبل أن يبلغ الشهر السادس
من عمره ، ولا يعرض على الطبيب ـ

بطبيعة الحال ، أما إذا جاوز الأطفال منطقة الخطر شبوا فتية صحتهم كالحديد . بقيت أمراض القلب والشلل . ولكن المصابين بهذه الأمراض يعيشون فى غفلة عنها لا يستيقظون قط للخطر الجاثم عليهم ، فإذا ما بلغوا الخمسين من العمر تخطفهم الموت فى لمح البصر .

كنوك : لا تقل لى إن جيبك امتلأ من معالجة أموات فارقوا الحياة بغتة ؟

الدكتور : كلا بطبيعة الحال [يبحث فى سره عن بقية كلامه] فلا تزال هناك أولا حالات الأنفلونزا ، لا أقصد حالات الأنفلونزا العادية التى لا يأبه لها المرضى بحال من الأحوال ، بل لعلهم يرحبون بها لأنها تعينهم فيما يزعمون على طرد سموم الجسد كلا ، إنما أعنى الأنفلونزا حيث تتفشى كوباء فى العالم كله .

كنوك : ينبغى إذن أن أنتظر الدورة القادمة

للأنفلونزا العالمية ! هل أمل إبليس في الجنة !

الدكتور : لا عليك ! فهذا الذى يحدثك قد عاصر منها وباءين ، الأول فى شتاء ١٨٨٩ – ١٨٩٠ والثانى ١٩١٨ .

مدام باربالييد : فى سنة ١٩١٨ كان عدد الموتى هنا يزيد نسبياً على عدد الموتى فى المدن الكبيرة [لزوجها] أليس كذلك ؟ لقد قمت بنفسك بمقارنة الإحصائيات .

الدكتور : نعم ، كانت نسبة الوفيات عندنا تفوق كثيراً نسبة الوفيات فى ثلاث وثمانين مقاطعة .

كنوك : وهل لجأوا إلى الطبيب ؟

الدكتور : نعم وبخاصة فى نهاية الوباء .

مدام باربالييد : وزاد دخلنا عند حلول عيد القديس ميشيل عند موسم حصاد القمح .

[يزحف چن تحت العربة]

كنوك : ماذا تعنين ؟

مدام باربالييد : الزبائن هنا لا يدفعون أجر الطبيب إلا فى هذا العيد بعد أن يبيعوا القمح .

كنوك : ما معنى هذا الكلام ؟ أهو التقويم اليونانى أم التقويم الخيالى ؟

الدكتور : [وهو يتتبع بنظرة منه بين الحين والحين عمل چاند تحت السيارة] لم هذه الهواجس يا زميلى العزيز ؟ إن عيد القديس ميشيل هو يوم مرموق بين أيام السنة وموعده آخر سبتمبر .

كنوك : [يعدل لهجته] ونحن الآن فى أوائل أكتوبر ! يا للداهية ! . . أما أنت فقد أحسنت على الأقل اختيار الوقت الذى تبيع فيه عيادتك [يمشى بضع خطوات وهو يفكر] ولكن لنفرض أن جاءك زبون لتكشف عليه ، أفلا يدفع لك أجرك من فوره قبل انتهاء الزيارة ؟

الدكتور : كلا ، إنه يدفعه فى عيد القديس ميشيل هذه هى العادة .

كنوك : حتى ولو جاءك لزيارة واحدة عارضة بحيث لن تراه بقية العام ؟

الدكتور : فى عيد القديس ميشيل .

[كنوك يتأملها وهو صامت]

مدام باربالييد : على كل حال فإن الناس هنا فى أغلب الأمر لا يقصـــدون الطبيب إلا مرة واحدة .

كنوك : ماذا ؟

مدام باربالييد : نعم .. هذا هو الواقع .

[الدكتور باربالييد يتصنع شرود الذهن]

كنوك : وماذا تفعل فى المرضى المواظبين ؟

مدام باربالييد : أى مرضى مواظبين ؟

كنوك : الذين يواظبون على التردد على الطبيب عدة مرات فى الأسبوع أو عدة مرات فى الشهر . .

مدام باربالید : [إلى زوجها] أسمعت ما يقوله الدكتور ؟ يتحدث عن زبائن مثل زبائن القصاب أو الخباز . . إنه شأن كل طبيب جديد فى الكار تخدعه الأوهام ..

الدكتور : [يضع يده على ذراع كنوك] صدقنى يا زميلى العزيز ، إن المرضى هنا هم أحسن صنف من الزبائن . . أعنى الصنف الذى لا يجور على استقلالك .

كنوك : استقلالى ؟ أتمزح ؟

الدكتور : دعنى أوضح الأمر ، أريد أن أقول إنك لن تقع تحت رحمة نفر من المرضى قد يتم شفاؤهم بين يوم وآخر فإذا خسرتهم أفلست ، أما إذا اعتمدت على الجميع فكأنك لا تعتمد على أحد .. أفهمت ؟

كنوك : بمعنى آخر لم يبق لى إلا أن أصطاد السمك وكان ينبغى أن أحضر معى «سنار» ، وكمية لا بأس بها من الديدان ، ولكن ربما

أجد كل هذا فى بلدكم [يسير بضع خطوات وهو يفكر . يقترب من السيارة الرثة ويتأملها ، ثم يلتفت التفتة غير كاملة] بدأت المسألة تتبين بجلاء شديد . يا زميلى العزيز ... إنك ، لقاء آلاف من الفرنكات معدودة هى باقية فى ذمتى ديناً لك على ، قد تنازلت لى عن عيادة زبائنها يشبهون سيارتك هذه تمام الشبه [يربت على السيارة بحنو] إذا قدرت قيمة هذه السيارة بتسعة عشر فرنكا فإنها لن تكون غاليـــة ، وإذا قدرتها بخمسة وعشرين فرنكا فإنها تباع بأكثر من ثمنها [يتأملها بنظرة هواة السيارات] وإذا كنت أحب أن أظل سمحاً فى معاملاتى فإنى أعرض عليـــك ثلاثين فرنكا ثمناً لها .

الدكتور : ثلاثين فرنكا لهذه السيارة ؟ إننى لا أفرط فيها ولو بستة آلاف .

كنوك : [وقد ظهرت عليه دلائل الأسف] كنت أتوقع

ذلك ، [يتأمل السيارة الرثة من جـديد]
إذن لن أستطيع شراء سيارتك ؟

الدكتور : سأبيعها ، ولكن على الأقل لو أنك عرضت على ثمناً معقولا . .

كنوك : يا للأسف ! كنت أريد أن أحولها إلى صنـــدوق [يعود] ، أما فيما يتعلق بعيادتك فإنني أتنازل عنها دون ندم عليها إن كانت الصفقة لم تتم بعد .

الدكتور : اسمح لى أن أقول لك يا زميلى العزيز إنك ضحية أوهام كاذبة .

كنوك : بل الأقرب إلى عقلى أننى ضحيتك أنت ، وليس من عادتى التأوه والتفجع ، وإذا ضحك على إنسان فلا ألومن إلا نفسى .

مدام باربالياد : ضحك عليك . . دافع عن كرامتك يا صديقى . . دافع !

الدكتور : كل ما أوده أن أجنب الدكتور كنوك

الاسترسال فى الأوهام :

كنوك : أما أقساط الدين فعيبها أنها تدفع كل ثلاثة شهور فى بلد كل مريض فيه زبون سنوى ، ينبغى لى أن أجد مخرجاً ، على كل حال لا داعى لانزعاجكم ، فإننى أكره أن أكون مدينا ، وألم الدين أقل على العموم من ألم اللمباجو أو ألم « خراج » فى الإلية . .

مدام باربالييد : ماذا ؟ إذن أنت لا تريد أن تدفع لنا الأقساط فى مواعدها المتفق عليها ؟

كنوك : إننى متلهف على سداد الدين يا مدام . . . ولكن لا سلطان لى على التقويم ، ولا أستطيع أن أزحزح عيد القديس جوزيف عن موعده .

مدام باربالييد : القديس ميشيل . .

كنوك : القديس ميشيل . .

الدكتور : أليس عندك مال مدخر ؟

كنوك : ولا سنتيم ، فإنى أرتزق من عملى أو على الأصح أتلهف على أن أرتزق منه ، وإنى أكره هذا الطابع الأسطورى فى زبائن العيادة التى أفلحتم فى بيعها إلى ، خصوصاً وكنت أريد أن أعاملهم بوسائل حديثة جداً [تفكير بعد لحظة وكأنما يخاطب نفسه] فى الواقع أن المشكلة واحدة وإن استبدلت وجهاً بوجه .

الدكتور : إذن أنت يا زميلى العزيز ترتكب حماقة مزدوجة حين تسارع إلى اليأس قبل الأوان ، وهذا شأن كل مستجد فى المهنة لم يتزود بعد بالتجارب ، لاريب أن مهنة الطب حقل خصيب ، ولكن خيراته لا تنبت عفواً ومن تلقاء ذاتها ، إنها أحلام شبابك التى رسمت لك الصورة بألوان زاهية نوعاً ما .

كنوك : يا زميلى العزيز كلامك هذا محشو بالأخطاء ، فأولا أنا أبلغ من العمر أربعين

عاما ، فإن كانت لى أحلام فهى ليست أحلام الشباب .

الدكتور : ليكن ، ولكنك لم تمارس مهنة الطب قط .

كنوك . : وهذا خطأ آخر .

الدكتور : ماذا ؟ ألم تقل لى إنك لم تتخرج من كلية الطب إلا فى الصيف الماضى ؟

كنوك : نعم وقدمت رسالة من اثنتين وثلاثين صفحة فولسكاب عنوانها : « علامات تمام الصحة ، قناع كاذب مخادع » ووضعت تحت العنوان كلمة مأثورة أسندتها إلى كلود برنار هى «الأصحاء هم مرضى غافلون»

الدكتور : إذن فنحن متفقان يا زميلى العزيز . .

كنوك : على أن رسالتى أصابت كبد الحقيقة .

الدكتور : لا . . على أنك لا تزال فى أول السلم .

كنوك . : عفواً إن شهادتى حديثة ولكن لى خبرة بمهنة الطب ترجع إلى عشرين سنة مضت .

الدكتور : ماذا ؟ هل كنت معاون صحة ؟ هـذه الوظيفة قد ألغيت منذ زمن طويل . .

كنوك : كلا بل كنت منتسباً للكلية . . حاملا لشهادة البكالوريا . .

مدام باربالييد : لم توجد قط بكالوريا فى الطب . .

كنوك : بكالوريا فى الآداب يا سيدى . .

الدكتور : كنت تمارس مهنة الطب إذن بدون شهادة وفى الخفاء ؟

كنوك : كلا بل نهاراً جهاراً، لا فى بلد فى أقاصى الريف بعيد عن العمران ، بل فى منطقة مساحتها سبعة آلاف كيلو متر تقريباً . .

الدكتور : هذا كلام غير مفهوم .

كنوك : بالعكس هى مسألة فى غاية البساطة ، فمنذ عشرين سنة مضت تخليت مضطراً عن دراسة الآداب واشتغلت باثعاً فى قسم « الكراڤتات » فى متجر كبير بمرسيليا ، ثم فقدت عملى وأخذت أتسكع فى الميناء ،

وقرأت إعلاناً عن سفينة حمولتها ١٧٠٠
طن مسافرة إلى الهند تطلب مشرفاً صحياً
ولا تشترط أن يكون حاصلا على لقب
دكتور ، فماذا تفعل لو كنت مكانى ؟

الدكتور : لا أفعل شيئاً بطبيعة الحال . .

كنوك : أفهم هذا منك فأنت لا تعشق مهنة
الطب ، أما أنا فقد تقدمت ، وإذ كنت
أمقت المواقف المريبة فقد أعلنتهم منذ
دخولى قائلا : « أيها السادة ! كنت
أستطيع أن أزعم لكم أننى دكتور ، ولكنى
فى الواقع لست دكتوراً ، بل أصرح لكم
بما هو أدهى ، إننى لا أعرف فى أى
موضوع سأكتب رسالتى » . فكانت
إجابتهم أنهم لا يتمسكون بلقب دكتور ،
وأن موضوع رسالتى لا يهمهم فى شىء ،
فرددت على الفور : « مع الاعتراف
بأننى لست دكتوراً ، إلا أننى أود لأسباب
تتعلق بالكرامة وحسن النظام أن يطلق على

فى السفينة لقب دكتور » . فقالوا إن هذه مسألة طبيعية ، ومع ذلك لبثت مدى ربع ساعة أشرح لهم الحجج التى زحزحتنى عن التمسك بالصدق والأمانة وحملتنى على المطالبة بلقب لا حق لى فيه ولا يرضاه ضمير ، وهكذا أطلت الحديث حتى لم يبق أمامهم سوى ثلاث دقائق للبت فى تحديد مرتبى . .

الدكتور : ولكن أصحيح أنه لم يكن لديك أى إلمـــام بالطب ؟ .

كنوك : افهمنى ! إننى كنت منذ طفولتى أقرأ بشغف فى الصحف كل إعلان عن علاج طبى أو دواء ، وإذا اشترى أبواى علبة حبوب أو زجاجة دواء سائل ، نزعت الورقة الملفوفة عليها وقرأت . شرحها لطريقة الاستعمال ، فما بلغت التاسعة من عمرى حتى كنت أحفظ عن ظهر قلب نصوصا طويلة عن عوارض

الإمساك ، وأستطيع الآن أن أتلو عليك من الذاكرة نص خطاب بديع أرسلته الأرملة م . ع . من مدينة بورج عام ١٨٩٧ إلى المعمل الأمريكى الذى ينتج دواء ضد الإمساك اسمه «الأعشاب السحرية الأكيدة المفعول» . أتريد ؟

الدكتور : لا تتعب نفسك إننى أصدقك ؛ ؛

كنوك : كان لهذه النصوص الفضل فى أنها جعلتنى منذ سن مبكرة آلف لغة الطب ، ولكن فضلها الأكبر أنها كشفت لى عن الطب عن حقيقة معناه وحقيقة أهدافه ، هذه الحقائق التى يخفيها تعليم الطب فى الجامعة تحت زخرف من المصطلحات العلمية الجوفاء ، وأستطيع أن أقول لك إننى حين بلغت الثانية عشرة كنت قد تمت لى فطنة صادقة بالطب هى التى تعتمد عليها اليوم طريقتى فى العلاج . ؛

الدكتور : لك طريقتك فى العلاج ؟ يشوقنى أن أعرفها . .

كنوك : إننى لا أقوم بدعاية ، إذ النتائج وحدها هى التى تتكلم ، وها أنت ذا اليوم تبيعنى عيادة هى باعترافك أنت ، صفر فى صفر .

الدكتور : عفواً . صفر فى صفر . . ؟

كنوك : عد بعد سنة فسترى ماذا سأكون قد فعلت بهـا ، سيكون أمامك البرهان القاطع ، وإذ تجعلنى أنت أبدأ من الصفر فإنك تضاعف عندى متعة التجربة .

چان : سيدى . . سيدى ! [يتجه إليه الدكتور باربالید] أظن أنه يحسن أيضاً أن أفك « الكاربوراتير » . .

الدكتور : أسرع أسرع [يعود] لما رأيت حديثنا قد طال ، طلبت إلى السائق أن يباشر الآن بتنظيف « الكاربوراتير » كما يفعل مرة كل شهر .

مدام باربالید : ولكن كيف سترت وجهك فى هـذه السفينة ؟

كنوك : قضيت الليلتين السابقتين لإبحارى وأنا أفكر وأتدبر ، ثم أتاحت لى الخدمة ستة أشهر فى السفينة أن أتحقق من صحة فهمى لمهنة الطب ووجدت أن ما أفعله مطابق لمـا يحدث فى المستشفيات .

مدام باربالید : أكان عليك أن تعنى بأناس كثيرين ؟

كنوك : طاقم السفينة وسبعة من الركاب كلهم رقيقو الحـال ، فى مجموعهم خمسة وثلاثون نفراً .

مدام باربالید : عدد لا يستهان به .

الدكتور : وهل حدثت وفيات ؟

كنوك : ولا مرة واحدة ، فالوفاة ضد مبادئى ، فأنا من أنصار تقليل الوفيات .

الدكتور : هذا شأننا جميعاً . .

كنوك : لا ، أنت أيضاً ؟ ما كنت أظن ذلك ، اعتقادى

أن واجبنا فى كلمتين أن نعمل على استبقاء
المريض وألا يصرفنا عن ذلك أى إغراء.

مدام باربالييد : فى قول الدكتور نصيب من الحق .

الدكتور : والمرضى ؟ هل كان هنـــاك مرضى
كثيرون ؟

كنوك : خمسة وثلاثون .

الدكتور : يعنى كل فرد فى السفينة ؟

كنوك : نعم كلهم جميعاً .

مدام باربالييد : وكيف كانت تسير السفينة إذن ؟

كنوك : كان العمل بالتناوب .

[لحظة صمت]

الدكتور : اصدقنى الآن . . أحقاً أنت دكتور ؟
فإنهم لا يسمحون هنا بمزاولة الطب إلا
لمن نال الشهادة وستجر علينا المتاعب ،
فإذا لم تكن حقاً دكتوراً فمن الخـــير أن
تصارحنا بذلك فوراً . .

كنوك : أنا حقاً دكتور فعلا وقانوناً ، إذ أننى حين

رأيت أن تجربتى قد أيدت طريقتى فى الطب لم يصبح لى من تلهف إلا على أن أرمى هذه الطريقة على دعائم ثابتة وفى نطاق واسع ، ولم أجهل أن الحصول على الشهادة إجراء شكلى لا مفر منه .

مدام باربالید : ولكنك قلت لنا إنك حديث عهد بدراسة الطب . .

كنوك : لم أستطع أن أنتظم فى دراسة الطب فى ذلك العهد الذى تحدثت عنه ، فقد اضطررت من أجل كسب العيش أن أشتغل بعض الوقت بتجارة الفول . .

مدا م باربالید : ما هذا ؟

كنوك : الفول السودانى . . [تبدو من مدام باربالید حركة] كلا يا سيدتى . . اطمئنى . . لم أكن بائعاً يجول بسلة فى يده ، لقد أسست مكتباً رئيسياً ، يقصده باعة الفول السودانى لشراء حاجتهم ، ولو بقيت

فيـــه عشر سنوات لكنت أصبحت مليونيراً ، ولكنى لم أجد فى هذا العمل أقل متعة ، وكل مهنة فى الأعم إن طال بها العهد تبعث على الملل ، وقد تبينت هذا بنفسى ، أما المهنة الوحيدة التى لا تبعث الملل حقاً فهى الطب أو ربما السياسة أو البورصة ، ولم أجرب هذه المهنة بعد . .

مدام باربالييد : وفى نيتك أن تطبق طريقتك هنا ؟

كنوك : إذا لم تكن هذه نيتى لأطلقت ساقى للريح وهربت وهيهات لك أن تلحقى بى ، كنت أفضل بطبيعة الحال أن أطبق طريقتى فى مدينة كبيرة . .

مدام باربالييد : [لزوجها] ها أنت ذا راحل إلى مدينة ليون فلماذا لا تلتمس بعض الإرشادات من الدكتور . فإنك لن تغرم شيئاً . .

الدكتور : ولكن يبدو أن الدكتور كنوك لا يريد . . أن يفضى بطريقته . .

كنوك : [إلى الدكتور باربالبد بعد برهة من التفكير]
أحب أن أخدمك ، وها أنذا أقدم إليك
الاقتراح التالى : بدلا من أن أدفع لك
دينى نقداً فى يوم علمه عند الله ، فإنى
أدفعه لك عيناً بأن أبقيك معى ثمانية أيام
أدربك فيها على طريقتى . .

الدكتور : [متمنعاً] أنت تمزح يا صديقى العزيز ،
لعلك أنت الذى ستكتب لى بعد ثمانية
أيام تسألنى المشورة والنصح

كنوك : لا داعى لهذا التأجيل ففى حسابى أن
أقتبس منك اليوم بعض إرشادات تكون
لى نافعة جداً .

الدكتور : أنا تحت أمرك يا زميلى العزيز .

كنوك : هل فى مدينتكم قارع طبل ؟

الدكتور : تعنى « المنادىَ العمومى » الذى يدق الطبل
ويبلغ الناس ما عنده ؟

كنوك : هو بعينه . .

الدكتور : نعم لدينا هذا المنادى العمومى تكلفه

البلدية بأن يذيع تعليماتها ولا يلجأ إليه من الأفراد إلا رجل ضاع منه كيس نقوده ، أو صاحب متجر يصفي بضاعته القديمة من فخار أو صيني .

كنوك : فهمت ! وكم يبلغ عدد سكان سان موريس ؟

الدكتور : ثلاثة آلاف وخمسمائة على ما أظن ، أما إذا ضممت إلى البلدة ضواحيها فالعدد ستة آلاف تقريباً . .

كنوك : وعدد سكان المركز كله ؟

الدكتور : ضعف هذا العدد على الأقل . .

كنوك : وهل السكان فقراء ؟

مدام باريالد : لا بالعكس هم من ميسوري الحال بل من الأغنياء ؛ فهناك ضياع واسعة ، وكثير من الناس يعيشون على موارد أملاكهم .

الدكتور : وكلهم على درجة فظيعة من الشح والتقتير . .

كنوك : وهناك مصانع ؟

الدكتور : عدد قليل جداً . .

كنوك : والحركة التجارية ؟

مدام باربالبد : ليست الدكاكين هى التى تنقصنا . .

كنوك : وأصحابها . . هل تجارتهم هى شغلهم الشاغل ؟

الدكتور : كلا فإن أغلبهم يشتغل بالتجارة لزيادة دخلهم أو على الأخص لخلق وسيلة يشغلون بها أوقات فراغهم .

مدام باربالبد : والعادة أن الزوجة تحرس الدكان على حين يخرج الزوج يتسكع باحثاً عن تسلية . .

الدكتور : أو العكس .

مدام باربالبد : أعترف بأن الزوج فى الغالب هو الذى يهجر الدكان ، ذلك أولا لأن النساء لا يعرفن أين يذهبن ، على حين أن الرجال أمامهم أن يذهبوا إلى الصيد بالبندقية أو صيد

السمك ، وفى الشتاء يذهبون إلى المقهى .

كنوك : وهل النساء متمسكات بالتقوى ؟

الدكتور : [باربالياد يأخذ فى الضحك] هذا سؤال له أهميته عندى .

مدام باربالياد : كثيرات منهن يذهبن للصلاة فى الكنيسة

كنوك : وهل للدين دور كبير فى مشاغلهن اليومية ؟

مدام باربالياد : ياله من سؤال عجيب !

كنوك : بديع جداً [يفكر] أليس هناك رذائل جسيمة ؟

الدكتور : ماذا تعنى ؟

كنوك : أفيون . . كوكايين . . ندوات سمر وعربدة ، شذوذ جنسى . . تعصب سياسى . .

الدكتور : إنك تخلط بين أشياء متباينة ، إننى لم أسمع قط عن أفيون ولا ندوات سمر

وعربدة ، أما السياسة فهى تشغل أهل البلد كغيرهم من الناس .

كنوك : ولكن هل فيهم من يهوى جلد أبويه لتغليب رأيه فى قانون الانتخاب مثلا أو قانون ضريبة الإيراد ؟

الدكتور : لم يصلوا إلى هذا الحد والحمد لله .

كنوك : والخيانة الزوجية ؟

الدكتور : أفندم ؟

كنوك : هل تتفشى عندكم فوق الحد ؟ وهل يشغل أمرها الناس شغلا شديدا ؟

الدكتور : أسئلتك عجيبة ، فبلدنا مثل أى بلد آخر فيه رجال تخونهم زوجاتهم ، ولكن عددهم معقول .

مدام باربالید : أولا إن الخيانة الزوجية غير ميسورة إذ أن الناس يتفانون فى مراقبة بعضهم .

كنوك : أليس لديكما معلومات أخرى عن المذاهب

الدينية ؟ عن الخرافات ؟ عن الجمعيات السرية ؟

مدام باربالييد : بعض نساء بلدتنا الفارغات اشتغلن فى وقت من الأوقات بتحضير الأرواح .

كنوك : آه . . آه . .

مدام باربالييد : يجتمعن عند زوجة الموثق وتتكلم الروح بحركة من المنضدة .

كنوك : مصيبة . . هذا شيء كريه .

مدام باربالييد : ولكنهن فيما أظن قد أقلعن عن عادتهن .

كنوك : آه أحسن . . وهل يوجد كذلك مشتغلون بالسحر أو بالعلاج الروحانى ؟ مثلا فلاح تفوح منه رائحة الأغنام يزعم أنه يشفى الناس بالرقى والتعاويذ ؟

[چان يشاهد بين الحين والآخر وهو يدير المانيفلا حتى تنبهر أنفاسه ثم يجفف عرقه]

الدكتور : ربما كان هذا موجوداً فيما مضى أما اليوم فلا . .

كنوك : [تتجلى عليه مظاهر التحفز . . يمك كفا بكف وهو يتمشى] خلاصة القول إنه قد آن للعصر الطبي أن يشرق [يقترب من السيارة] يا زميلي العزيز أمن القسوة على هذه السيارة أن تسألها بذل مجهود جديد ؟ إنني متلهف على بدء إقامتي في سان موريس .

مدام باربالييد : يا لها من لهفة مفاجئة !

كنوك : من فضلكم ! فانصل إلى بلدتكم المتربعة فوق قمة الطريق .

الدكتور : أي عامل قوي أصبح يجذبك إليها إذن ؟

[كنوك يتمشى جيئة وذهابا ولا صمت]

كنوك : يا زميلي العزيز . . يخيل إلي أنك قد فوت عليك في تلك البلدة فرصة بديعة ، وإن اقتبست أسلوبك أقول : إنك حصدت

الشوك بعرق الجبين بدلا من الثمار الطيبة ، كان ينبغى لك أن ترحل وأنت غارق فى الذهب ومتربع على أكداس من الأوراق المالية ، وأنت يا سيدتى تتحلين بعقد من اللؤلؤ من ثلاثة فروع ، وكلاكما فى سيارة فخمة [يشير إلى السيارة الرثة] لا فى هذا الأثر التاريخى لأول حبو للنبوغ العصرى .

مدام باربالييد : أتمزح يا دكتور ؟

كنوك : لو كان مزاحا لكان قاسياً يا سيدتى .

مدام باربالييد : إذن فهذا كلام فظيع . . هل سمعت يا ألبرت قوله ؟

الدكتور : أدركت أن الدكتور كنوك رجل يجرى وراء السراب وأنه فوق ذلك هوائى لا يقر له قرار . . تتلاعب به الأحاسيس المباينة فى غاية الغلو ، فهو يرى تارة أن

العيادة لاتساوى ولا صولدى ، وتارة أنها من الذهب [يرفع كتفيه إلى أعلى] .

مدام باربالييد : وأنت أيضاً ، إنك ستبدد برأيك ، ألم أقل لك أكثر من مرة إنك لو عرفت كيف تعالج الأمور لكانت لنا فى سان موريس حياة أفضـــل من التى عشناها .

الدكتور : طيب .. طيب .. إننى سأعود بعـــد ثلاثة أشهر عند حلول القسط الأول من الدين : وسنرى ماذا يكون حال الدكتور كنوك . .

كنوك : وهو كذلك .. ارجعوا بعد ثلاثة أشهر ، وسنجد حينئذ فسحة من الوقت نتبادل فيها الحديث ، أما الآن فإنى أناشدكم أن نرحل فوراً .

الدكتور : [إلى جان بتيب] هل أنت مستعد ؟

چان : [بصوت خافت] أما عن نفسى فأنا مستعد ولكنى لا أظن أننا سنفلح هـذه المرة بمجهودنا وحده أن نحرك السيارة .

الدكتور : [بنفس اللهجة] وكيف ؟

چان : [يهز رأسه] يلزمنا رجال أشد قوة منا .

الدكتور : وما قولك لو حاولنا دفعها ؟

چان : [وهو غير واثق] ربما

الدكتور : أنا واثق أننا نستطيع ، فأمامنا عشرون متراً فى طريق منبسط ، وسأتولى عجلة القيادة ، وتقوم أنت بدفع السيارة .

چان : فليكن .

الدكتور : ثم تعمـد إلى القفز إلى سلم السيارة فى اللحظة المناسبة . . فهمت ؟ . . [يعـود الدكتور للآخرين] إذن هيا اركب يا زميلى العزيز ، سأتولى أنا قيادة السيارة إذ أن چان — لأنه عملاق — يريد من قبيل

اللهو والتسلية أن تطلع بنا السيارة بغير عون من «المانيفلا» ، طلعة يمكن أن نسميها « أوتوماتيكية » مع أن قوة العضلات تقوم بعمـــل الشرارة الكهربائية وكلا القوتين فى الحق من نوع واحد تقريباً ..

[جان يميل على مؤخرة السيارة يدفعها]

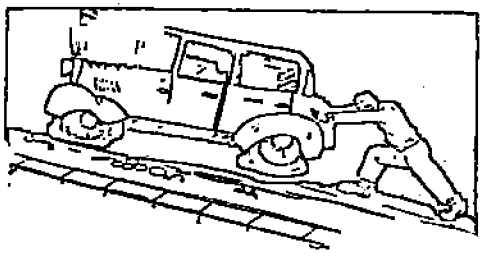

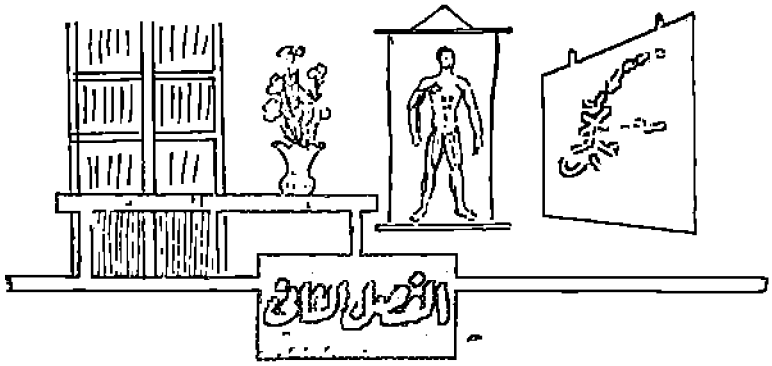

[فى المسكن الذى كان يقيم فيه الدكتور باربالياد من قبل ، وقد أثثه الدكتور كنوك بترتيب مؤقت : منضدة . . مقاعد . . دولاب كتب . . شيز لونج . . سبورة . . حوض للغسيل . . وعلى الجدران رسومات علم التشريح . .] .

المشهد الأول

كنوك — المنادى العمومى

كنوك : [وهو جالس يجيل نظره فى الحجرة ثم يكتب]
أنت المنادى العمومى ؟

المنادى : [وهو واقف] نعم يا سيدى . .

كنوك : نادنى بلقب دكتور . . وتكون إجابتك : نعم يا دكتور أو لا يا دكتور . .

المنادى : حاضر يادكتور . .

كنوك : وحين تتاح لك فرصة التحدث عنى مع الناس فلا يفوتك أبداً أن تكون عبارتك هكذا : الدكتور قال . . الدكتور فعل . . هذه مسألة تهمنى ، وبأى عبارة كنتم تتحدثون عن الدكتور باربالید إذا جاءت سيرته ؟

المنادى : كنا نقول : رجل طيب ، ولكنه ليس حجة فى الطب . .

كنوك : ليس هذا ما سألتك عنه ، هل كنتم تقولون : الدكتور ؟

المنادى : كلا . . كنا نقول مسيو باربالید أو « أبو كشورة » !

كنوك : وما معنى « أبو كشورة » ؟

المنادى : هذا وصف اشتهر به بين الناس ولكن لم أفهم قط سببه . .

كنوك : وهل كان رأيكم فيه أنه ليس على درجة كبيرة من البراعة فى مهنته ؟

المنادى : أما عن نفسى فاعتقادى أنه كان على درجة لا بأس بها من البراعة ، وبقية الناس لا يعترفون . . بذلك .

كنوك : عجيبة !

المنادى : وكان إذا قصده إنسان لم يجد . .

كنوك : لم يجد ماذا ؟

المنادى : يجد علته ، ففى تسعين فى المائة من الحالات يصرف المريض بقوله: « عارض تافه » وستكون يا صديقى من غد فى أتم صحة وعافية . .

كنوك : حقاً ؟

المنادى : أو لا يلقى باله إلى حديث زائره مردداً « طيب . . طيب . . » أو « نعم . نعم . » ثم ينطلق فى التحدث ساعة

كاملة عن مسألة أخرى ، كأن يتحدث مثلا عن سيارته . .

كنوك : كأنما يقصده المريض ليسمع هذا الحديث ؟ .

المنادى : ثم يصف دواء زهيد الثمن يكون أحياناً شرب سائل معرق ، وأنت مدرك أن الذى يدفع ثمانية فرنكات أجر استشارة الطبيب لا يرون له أن يصف له دواء زهيد الثمن ؟ إن أشد الناس غباء ليس فى حاجة لاستشارة طبيب من أجل أن يصف له احتساء فنجان من البابونيك . .

كنوك : يحزنى ما أسمعه منك ولكن استدعيتك لأستفسر منك عن شىء . هو الأجر الذى كنت تتقاضاه من الدكتور باربالد حين يكلفك بإذاعة إعلان له ؟

المنادى : [بمرارة] إنه لم يكلفنى قط بإذاعة إعلان له . . !

كنوك : ماذا تقول ؟ حتى ولا مرة واحدة فى بحر ثلاثين عاماً ؟

المنادى : ولا إعلان واحـــد فى ثلاثين سنة أقسم لك . .

كنوك : لا بد أنك نســـيت ؛ لا أستطيع أن أصدقك . وباختصار ما هى تعريفة الأجور ؟ [ينهض من مقعده ممسكاً ورقة فى يده]

المنادى : ثلاثة فرنكات للجولة القصيرة . . وخمسة فرنكات للجولة الكبيرة ، وقد تحسب أن الأجر مرتفع ، ولكنه عمل يتطلب جهداً كبيراً . وعلى كل حال فإنى أنصح سيدى . . .

كنوك : الدكتور . .

المنادى : إنى أنصح الدكتور إذا هان عليه دفع زيادة فى الأجر فى حدود فرنكين اثنين أن يختار الجولة الكبيرة فهى أكثر بركة من الأخرى . .

كنوك : ما هو الفرق بينهما ؟

المنادى : فى الجولة الصغيرة أنادى خمس مرات أمام البلدية وأمام مكتب البريد وأمام فندق المفتاح وفى الميدان الكبير ، وعند مدخل السوق ، أما فى الجولة الكبيرة فإنى أقف وأنادى إحدى عشرة مرة سأعددها لك . .

كنوك : فهمت ! سأختار الجولة الكبيرة ، فهل أنت خال من الشغل هذا الصباح ؟ .

المنادى : على الفور إن شئت . .

كنوك : إليك إذن نص الإعلان [يناوله الورقة]

المنادى : [يتأمل النص] إننى أفك الخط . ولكنى أفضل أن تقرأه لى . . لأول مرة .

كنوك : [يقرأ النص بتمهل ، والمنادى ينصت متحرياً إيقاع التلاوة طبقاً لأصول مهنته] : « الدكتور كنوك خليفة الدكتور باربالين يهدى تحياته إلى أهالى مدينة ومركز سان موريس ويتشرف بإحاطتهم علماً أنه

استجابة لرغبته فى فعل الخير والقضاء
على هذه الزيادة الموجبة للقلق فى تفشى
مختلف الأمراض فى منطقة كانت معروفة
بطيب مناخها . . .

المنادى : هذه حقيقة صارخة . .

كنوك : . . . فإنه يعلن أنه يتبرع بالكشف مجاناً
على المرضى من أهل المركز كل يوم
اثنين من الساعة التاسعة والنصف إلى
الساعة الحادية عشرة والنصف . . أما
إذا كان المريض ليس من أهل المركز
فإن أجر الاستشارة سيظل كالمألوف :
ثمانية فرنكات . . » .

المنادى : [يتناول الورقة باحترام] حقاً إنها فكرة
جميلة . . فكرة ستكون موضع تقدير ،
فكرة فاعل خير [بغير من لهجته] ولكنك
تعلم أن اليوم هو يوم الاثنين ، فإذا
أذعت هذا الإعلان هذا الصباح فلن

تمضى خمس دقائق حتى يتقاطر الناس إليك . .

كنوك : بهذه السرعة ؟ أتظن ذلك ؟

المنادى : لعلك لم تنتبه إلى أن يوم الاثنين هو يوم السوق ونصف أهل المركز مجتمعون به وسيبلغ الإعلان هذا الحشد الضخم ولن تعرف من شدة الزحام عليك رأسك من رجليك . .

كنوك : سأبذل جهدى وأحسن التصرف . . .

المنادى : بقيت مسألة أخرى . . إن يوم السوق هو اليوم الذى يتيح لك أكبر فرصة للظفر بزبائن ، وكان الدكتور باربالبد لا يجد زبوناً إلا فى هذا اليوم [ثم يقول له بألفة] فإذا كشفت عليهم مجاناً . .

كنوك : لا يغيب عليك يا صديقى أن الذى أريده قبل كل شىء هو أن يألف الناس معالجة أبدانهم ، وإلا لو كان المال

مطمعى لكنت فتحت عيادتى فى باريس
أو نيويورك . .

المنادى : آه . . لقد وضعت أصبعك على العلة ، فإن الناس هنا لا يهتمون بالعلاج اهتماماً كافياً . .

كنوك : ألاحظ يا صديقى أن لك منطقاً حكيما .

المنادى : [وقد ملأه الزهو] أوه . . بالطبع إن لى منطقاً حكيما . مع أننى لم أنل من التعليم ما كنت أستحقه ، ولكن هناك كثيرا من المتعلمين ينهزمون عند الجدل أمامى ، وحضرة العمدة — وإن كنت لا أريد ذكره — عنده عن ذلك الخبر اليقين ، دعنى أقص عليك كيف حدث ذات يوم يا سيدى . .

كنوك : يا دكتور .

المنادى : [بنشوة] يا دكتور . . كيف حدث ذات يوم أن كان مأمور المركز بنفسه موجوداً فى البهو الكبير المخصص لعقد

الزواج فى دار العمدة ، ويمكنك أن تستوثق من صحة الوقائع ممن حضر من كبار القوم مثل حضرة نائب المأمور وإن كنت لا أريد ذكره أو مسيو ميكالون . . فإذا بى . . .

كنوك : فإذا بحضرة المأمور قد أدرك من فوره أنه بإزاء رجـــل فذ ، وأن منادى البلد هو مناد يحسن إقامة الحجة بما لا يحسنه أناس إن كانوا لم يمتهنوا مهنته إلا أنهم يشمخون بأنوفهم ادعاء بأن مقامهم يعلو فوق مقامه بكثير ، ثم إن الذى انعقد لسانه وارتبك لم يكن إلا حضرة العمدة نفسه . .

المنادى : [فى سعادة كبيرة] هـــذه هى الحقيقة بعينها ، فلا حاجة إلى تغيير كلمة واحدة فيها ، ويكاد المرء يقسم إنك كنت موجوداً حينئذ بيننا ، مختبئاً فى ركن صغير . .

كنوك : إننى لم أكن موجوداً هناك يا صديقى . .

المنادى : إذن لا بد أن يكون قد روى لك القصة إنسان ذو مقام [تصدر من كنوك حركة تنم عن تحفظ دبلوماسى] ولن تستطيع أن تنزع من رأسى أنك تحدثت فى هذا الموضوع مع حضرة المأمور . .

كنوك : [يتنع بالابتسام ثم ينهض] إذن فانني معتمد عليك يا صديقى اعتماداً كبيراً . . أليس كذلك ؟

المنادى : [بعد تردد متوال] إننى لن أستطيع أن أملك المجيء للعيادة مبكراً ، وإذا ملكته فسيكون بعد فوات المواعيد ، فهل لك أن تسدى إلى جميلا يدل على طيبة قلبك وتكشف علىَّ فوراً . . ؟

كنوك . هيه . . بشرط أن تسرع فلدى موعد مع مسيو برنار المدرس ، ومسيو موسكيه الصيدلى ، وينبغى أن أقابلهما قبل مجيء الزبائن ، مم تشكو ؟

المنادى : انتظر حتى أفكر [يضحك] ، . . بعد

أن أتناول عشائى أحس أحياناً بشىء يشبه الأكلان هنا [يضع يده على أسفل بطنه] شىء يشبه الدغدغة أو الخربشة . .

كنوك : [وقد استغرق فى تفكير عميق] احترس ، حذار من الخلط ، ينبغى أن تقول لى هل هى دغدغة أم خربشة !

المنادى : إنها خربشة [يفكر] ولكنها مصحوبة بدغدغة بسيطة أيضاً . .

كنوك : أرنى الموضع بالضبط .

المنادى : هنا . .

كنوك : أين هنا هذه ؟

المنادى : هنا . . أو قد يكون هنا . . أو قد يكون بين الموضعين . .

كنوك : فى الوسط بين الاثنين تماماً ؟ أم يكون أبعد قليلا إلى اليسار ؟ هنا حيث أضع أصبعى ؟

المنادى : يجوز

كنوك : هل تشعر بألم حين أغرز أصبعى ؟

المنادى : نعم . . يخيل إلىّ أننى أشعر بألم : :

كنوك : آ . . . آه [يفكر وقد انعقد جبينه دلالة على التوجس] أفلا تشـــعر بهذا الأكلان يزداد عن المألوف إذا أكلت رأس عجل مطبوخ بالخل ؟

المنادى : إننى لا آكل لحم الرأس أبداً ، ومع ذلك يخيل إلى أننى لو أكلته لزاد الأكلان عن المألوف .

كنوك : آه . . آه هذا شيء مهم جداً . . آه . . آه . . كم عمرك ؟

المنادى : ما بين واحد وخمسين واثنين وخمسين .

كنوك : ولكن لأيهما عمرك أقرب ؟ لواحد وخمسين أم لاثنين وخمسين ؟

المنادى : [يرتبك قليلا] أقرب إلى الثانية والخمسين إذ سأتم السنة فى نوفمبر القادم . .

كنوك : [يضع يده على كتفه] يا صديقى . . باشر عملك اليوم كعادتك وفى المساء ارقد فى فراشك مبكراً وابق فيه غداً لا تبرحه ،

وسأمر عليك لأفحصك ولن أتقاضى أجراً منك أنت ، ولكن لا تنقل ، هذا الخبر لإنسان ؛ إنه إكرام منى لك . .

المنادى : إنك طيب جداً يا دكتور ، ولكن هل علتى خطيرة ؟

كنوك : إنها لم تصبح بعد خطيرة جداً ، ولكن قد آن أوان علاجها . . هل تدخن ؟

المنادى : [يخرج سديله] كلا . . بل أمضغ التبغ .

كنوك : ممنوع مضغ التبغ منعاً باتاً . : هل تحب النبيذ ؟

المنادى : إننى أشربه باعتدال . .

كنوك : ممنوع شرب النبيذ ولو قطرة واحدة . . هل أنت متزوج ؟

المنادى : نعم يا دكتور [المنادى يمسح عرقه] .

كنوك : ينبغى التزام منتهى التعقل فى هذه الناحية : فهمت ؟

المنادى : هل أستطيع أن آكل ؟

كنوك : اليوم مادمت تؤدى عملك ، فلك أن

تشرب شيئاً من الحساء ، وغداً سنتدبر وضع قائمة صارمة بالممنوعات ، وإلى ذلك الحين عليك أن تتبع ما قلته لك . .

المنادى : [يمسح عرقه مرة أخرى] . ألا يكون من الخير فى رأيك أن ألزم الفراش من فورى ؟ . . إننى حقاً لا أشعر بأن حالتى طبيعية . .

كنوك : [يفتح الباب] حذار من هذا ، ففى حالتك هذه لا يحسن الرقاد فى الفراش ما بين طلوع الشمس وغروبها ، فباشر عملك كأن لم يطرأ عليك شىء ، انتظر بهدوء حتى يجىء المساء . .

[المنادى يخرج والدكتور كنوك يشيعه] .

المشهد الثانى

كنوك — المدرس برنار

كنوك : صباح الخير يا مسيو برنار ، عسى ألا

أكون قد أزعجتك كثيراً بدعوتك
للمجيء إلى هذه الساعة . .

برنار : كلا . . كلا . . فقد ملكت دقائق قليلة
من وقتى إذ أن مساعدى يتولى مراقبة
التلاميذ فى الفسحة . .

كنوك : كنت أتوق إلى تبادل الحديث بيننا ،
فلدينا مهام كثيرة ينبغى أن نتشارك فى
حملها . مهام عاجلة ، ولست أنا الذى
يحظى بهذه المعاونة الجليلة التى كنت
تسديها إلى سانى .

برنار : أية معاونة ؟

كنوك : أحب أن أقول لك إننى لست بالرجل
الذى يفرض آراءه على الغير أو يهدم
من الأساس كل ما بناه الآخرون من
قبل ، فستكون أنت فى البدء مرشدى
ودليلى . .

برنار : لا أتبين مغزى كلامك . .

كنوك : لنترك الآن كل شىء على ما هو عليه ،

ثم نتناوله بالتحسين فيما بعد إن لزم الأمر [كنوك يجلس] .

برنار : ولكن . . .

كنوك : فى مجال الإرشاد الصحى أو المحاضرات الشعبية أو الندوات الصغيرة التى نعقدها معاً ، ستكون طريقتك هى طريقتى ومواعيدك مواعيدى . :

برنار : المسألة يا دكتور أننى أخشى ألا أكون قد أدركت الهدف الذى ترمى إليه بهذه التلميحات كلها . .

كنوك : أود أن أقول بكل بساطة إننى راغب فى إبقاء الصلة بيننا كاملة لا تمس حتى خلال الفترة التى أنشغل فيها بترتيب عيادتى . .

برنار : لا بد أن فى كلامك معنى أنا عاجز عن فهمه . .

كنوك : عجباً . . ألم تكن على صلة دائمة بالدكتور باربالبد ؟

برنار : كنت أقابله بين الحين والآخر فى مقصف فندق المفتاح أو كان يحدث أن نلعب البليارد معاً . .

كنوك : هذا النوع من الصلات ليس هو موضوع كلامى . .

برنار : لم تكن بيننا صلات سواها : .

كنوك : عجباً . . عجباً . . كيف إذن كنتما تتقاسمان عبء الإرشاد الصحى بين الأهالى ونشر الدعاية الصحية بين الأسر ؟ ولغير ذلك من الأمور ؟ إننى أعنى جماع المهام التى لا يستطيع المدرس والطبيب النهوض بها إلا بعمل مشترك بينهما : :

برنار : لم نتشارك أبداً فى شىء . .

كنوك : ماذا ؟ هل فضل كل منكما أن يعمل مستقلا ؟

برنار : المسألة أبسط من ذلك ، فهذه أشياء لم نفكر فيها قط لا أنا ولا هو ، وهذه هى

أول مرة أسمع فيها مثل هذا الكلام فى سان موريس .

[تبدو على كنوك كل علامات الدهشة الممزوجة بالأسف] .

كنوك : آه . . هذه أنباء أؤكد لك أننى لو لم أسمعها من فمك أنت لما صدقتها أبداً . .

[فترة صمت] .

برنار : يؤسفنى ما سببته لك من خيبة الأمل . . ومن الإنصاف أن تسلم بأنه لم يكن فى وسعى أنا اقتراح وضع خطة مطابقة لرأيك حتى لو جالت فكرتها فى رأسى وحتى ولو لم يلتهم عملى فى المدرسة كل وقتى . .

كنوك : بالطبع ! كنت تنتظر دعوة فلم تجئك

برنار : ما قصدنى إنسان لخدمة إلا بذلت جهدى فى أدائها .

كنوك : أعلم هذا يا مسيو برنار . . أعلم هذا [فترة

صمت] ما أبأس أبناء هذا البلد نفضت منهم الأكف . فلا يبصرهم أحد بوسائل العلاج والوقاية .

برنار : هذا هو الواقع .

كنوك : أراهن أنهم يشربون الماء دون أن يشغل بالهم أن فى كل جرعة لهم بلايين البلايين من البكتريا . .

برنار : آه . . هذا محقق .

كنوك : ألديهم على الأقل علم بالميكروبات ؟

برنار : أشك فى ذلك كثيراً . . إن بعض الناس هنا يعلمون هذه الكلمة ولكنهم يتصورون أنها اسم لبعض أنواع من الذباب . .

كنوك : [وهو ينهض] هـــذا فظيع . . صدقنى يا عزيزى مسيو برنار إننا لن نستطيع فى ثمانيـــة أيام أن نصلح أنا وأنت آثار سنين عديدة من . . . من عدم المبالاة ولكن ينبغى لنا مع ذلك أن نعمل شيئاً...

برنار : لا مانع عندى ، إنما أخشى ألا أنفعك كثيراً .

كنوك : يا مسيو برنار . . سبق لشخص بك جد خبير أن كشف لى عن عيب جسيم فى طبعك وهو التواضع فما يجهل إنسان غيرك أنك هنا صاحب رأى مطاع بفضل سمو مكانتك الأدبية ونفوذك الشخصى ، وأرجو أن تغفر لى مجاهتك بهذه الحقيقة ، فما يتاح لعمـــل جدى نافع أن يتم هنا إلا بفضلك .

برنار : أنت تبالغ يا دكتور .

كنوك : إذن اتفقنا ، أستطيع وحدى أن أعالج المرضى ، ولكن المرض ذاته من الذى يعينى على محاربته ومطاردته ، منذا الذى يبصر إخواننا المساكين هنا بالخطر الذى يهدد أبدانهم فى كل لحظة ، ومنذا الذى يعلمهم ، أنه لا ينبغى تأجيل طلب الطبيب إلى حين طلوع الروح ؟

برنار : لا أخالف رأيك فيهم ، إنهم فى غاية الإهمال . .

كنوك : [بحماس يتزايد شيئاً فشيئاً] لنبدأ من البداية ، لدى هنا نص محاضرات عديدة مكتوبة بلغة بسيطة ، وملحق بها بيانات مستوفاة وصور على زجاج وفانوس سحرى ، فتتولى أنت بخبرتك تنظيم الانتفاع بهذا كله . وكخطوة أولى إليك بنص كامل لمحاضرة لذيذة عن التيفويد تتحدث عن تسرّها تحت علامات خادعة لا ينتبه لها المريض وعن مصادرها التى تفوق الحصر كالمـــاء والخبز واللبن والمحار والسلطة والخضراوات والتراب وتنفس المريض .. الخ . . . الخ . . . وكيف أنها تكمن الأسابيع والشهور دون أن تفضحها علامة وكيف أنها تحدث فجأة عللا مميتة وتجد وراءها مضاعفات خطيرة ، وهذا النص مصحوب بمناظر جميلة ، صورة للباشلاص

فى حجم ضخم جداً وصورة مماثلة من براز المريض ، ولغدد ملتهبة ، ومصارين مثقوبة ، ليست صوراً بالأبيض والأسود ، بل هى صور ملونة كما تروم بالوردى والكستنائى والأصفر والأبيض المخضر ..

[كنوك يقعد]

برنار : [وقد بدت عليه علامات الابتئاس] المسألة أننى رجل سريع التأثر وإذا أغرقت نفسى فى هذه اللجة فلن أذوق النوم . .

كنوك : هذا هو الواجب بعينه ، أريد أن أقول إن صدمة الصحوة المباغتة هى التى ينبغى لنا أن تزلزل بها أحشاء السامعين ، أما أنت يامسيو برنار فستتعود عليها ، فدعهم هم يأرقون لها [يميل عليه] فخطيئتهم أنهم ينامون فى أمان خادع لايوقظهم منه إلا بعد فوات الوقت مرض ينزل عليهم كالصاعقة .

برنار : [تمشى فى جسده رعدة ، يده على المكتب ونظرته

متهربة] إننى لاأتمتع بصحة متينة ، وقد لقى أبواى عنتاً شديدا فى السهر علىّ ، واعلم أن الميكروبات التى تقدمها لنـــا على الألواح الزجاجية ما هى إلا صورة ، ولكن ألا ترى ...

كنوك : [كأنه لم يسمع شيئاً] أما هـــؤلاء الذين يسمعون المحاضرة الأولى فلا يتحولون عن برودهم فقد أعددت لهم محاضرة ثانية بعنوان يبـــدو بريئاً هو : « حاملو الميكروبات » فيها براهين واضحة وضوح النهار مدعمة بأمثلة عن حالات كانت موضع درس ومراقبة تثبت أن الشخص قد يجوس خلال الناس ، وجهه مشرق ، ولسانه وردى ، وطعامه مأكول بشهية بديعة ، ومع ذلك فهو يخفى فى تلافيف جسده ملايين الملايين من الباشلاص فى أشد درجات النشاط بحيث يكفى ما يحمله منها لتلويث مقاطعة بأكملها [ينهض].

فاعتماداً على العلم والعمل ، أن أشتبه فى أول قادم أن يكون حاملا لميكروبات ، وها أنت ذا مثلا لاشىء يؤكد لى أنك لست واحداً منهم . .

برنار : [ينهض] أنا يا دكتور ؟ !

كنوك : ما أشد عجبى لو استمع إنسان لهذه المحاضرة الثانية البسيطة وبقى بعدها رائق المزاج . :

برنار : هل تظن أننى يا دكتور من حاملى الميكروبات ؟

كنوك : ليس بالضرورة أنت ، إننى كنت أضرب مثلا ، ولكن ها أنذا أسمع صوت المسيو موسكيه ، فإلى اللقاء ياعزيزى المسيو برنار ، وشكرا على انضمامك إلىّ ، هذا الانضمام الذى لم أكن أشك فيه قط . :

المشهد الثالث

كنوك — الصيدلى موسكيه

كنوك : تفضل اجلس يا عزيزى المسيو موسكيه ، لم يسعفنى الوقت أمس إلا أن ألقى نظرة عاجلة على محتويات صيدليتك ، ولكن لم أكن فى حاجة إلى مزيد لأتبين أنها صيدلية ممتازة فى ترتيبها وفى النظام المحكم الذى يسـودها ، وفى أخذها بأحدث الأساليب حتى فى أصغر الأشياء .

موسكيه : [فى ثياب متواضعة بل مهملة] يا دكتور أنت رجل مجامل جداً . .

كنوك : هذه مسألة أنا حريص عليها أشـد الحرص ، فإنى أعتقد أن الطبيب الذى لا يتاح له الاعتماد على صيدلى من الدرجة الأولى ، هو بمثابة قائد جيش يمضى إلى المعركة بدون مدفعية . .

موسكيه : يسعدنى أن أراك تقدر أهمية مهنتى . :

كنوك : ويسعدنى أنا أيضاً أن أقول إن مؤسسة كمؤسستك لا شك أنها تلقى جزاءها وأنك تكسب فى السنة خمسة وعشرين ألفاً على الأقل . .

موسكيه : من الأرباح ؟ آه . . يا إلهى لو أننى كسبت ولو نصفها . .

كنوك : يا عزيزى مسيو موسكيه ، إنك الآن لست أمام مندوب مصلحة الضرائب ، إنك أمام صديق بل دعنى أقول إنك أمام زميل . .

موسكيه : ستكون إهانة لك لا أرضاها لو عاملتك بحذر مستريب ، وإنما الذى قلته لك هو الحقيقة بعينها مع الأسف [بعد فترة تريث] إننى أكافح كفاحاً شديداً لئلا يقتصر مكسبى على عشرة آلاف . .

كنوك : ألا تدرك أنها فضيحة ؟ [موسكيه يرفع كتفيه بحركة تدل على الحزن] فإن مبلغ

خمسة وعشرين ألفاً كان فى تقديرى هو الحد الأدنى .. وليس لك مع ذلك منافس .. ؟

موسكيه : ولا واحد إلا على بعد خمسة فراسخ . .

كنوك : إذن ما السبب ؟ هل لك أعداء ؟

موسكيه : لا أعرف أن لى أعداء .

كنوك : [يخفض صوته] هـل صحيفتك بيضاء لا تسودها هفوة يؤسف لها نتيجة سهو مثلا ؟ خمسون جراماً من صبغة الأفيون بدلا من زيت الخروع ، وهذا سهو ميسور وقوعه ؟

موسكيه : عملت عشرين سنة فلم تقع منى هفوة واحدة . . صدقنى . .

كنوك : إذن . . إذن . . إننى أمقت أن أتقدم بفروض أخرى ولكن سلفى . . هل كان مقصراً فى واجبه ؟

موسكيه : هذه مسألة يختلف فيها الرأى .

كنوك : مرة أخرى أقول لك يا عزيزى مسيو

موسكيه إن الكلام سيبقى بيننا نحن الاثنين سراً . .

موسكيه : الدكتور باربالييد رجل ممتاز ، وكان بيني وبينه أحسن صلة شخصية . .

كنوك : ولكن « روشتاته » جميعاً لا تؤلف مجلداً ضخماً ؟

موسكيه : الحقيقة نطق بها لسانك أنت . .

كنوك : إنني حين أتدبر الآن جماع المعلومات التي جاءتني عنه أشتاتاً أراني مدفوعاً إلى التساؤل عما إذا كان سلفي يؤمن بالطب . .

موسكيه : لقد بذلت غاية جهدي بإخلاص في مبدأ الأمر فكنت إذا جاء الناس يشكون من أوجاع ، ورأيت أن حالهم يدعو إلى شيء من القلق ، أرسلت بهم إليه ، ثم كأن سلامهم كان سلام وداع فلا أراهم يعودون إليّ أبداً . .

كنوك : إن هذه الأخبار لها تأثير عليّ أشد

مما كنت أود ، إن لنا نحن الاثنين
يا عزيزى مسيو موسكيه مهنتين من
أحسن المهن عند الناس ، أليس من العار
إذن العمل على الحط بها قليلا قليلا عن
قمة عالية من السلطان والثراء بلغتها
بفضل جهود أسلافنا ، تكاد الشفتان
تنطقان بعبارة تخريب مقصود . .

موسكيه : بلا جدال ، وإذا تركنا مسائل المال
جانباً فمن الإخلال بالواجب ترك المهنة
تنحدر إلى ما هو دون مستوى السباك
والبقال . أؤكد لك يا دكتور أن زوجى
لا تستطيع شراء القبعات والجوارب
الحريرية التى تتباهى بها زوج السباك كل
أيام الأسبوع لا يوم الأحد وحده . .

كنوك : اسكت يا صديقى العزيز ، فإننى أتوجع
لكلامك فما هو إلا كأنى أسمع من يقول
إن زوجة رئيس مجلس النواب قد انحدر
بها الحال حتى أصبحت تغسل ملابس

بائعة الخبز من أجل أن تحصل على حاجتها من الأرغفة .

موسكيه : لو كانت مدام موسكيه هنا لأخذها الطرب لسماع كلامك .

كنوك : فى منطقة مثل منطقة مركز سان موريس ينبغى لنا نحن الاثنين ألا نستطيع رفع رأسينا من كثرة العمل . . .

موسكيه : هذا حق . .

كنوك : إننى أعتبر من حيث المبدأ أن جميع أهالى المركز هم بحكم وجودهم وحده زبائن يعتمد عليهم .

موسكيه : جميع أهالى المركز ؟ أنت تطلب الكثير . .

كنوك : أقول أهالى المركز . .

موسكيه : الواقع أن كل واحد منهم لابد قاصدنا فى يوم من الأيام فى مناسبة من المناسبات .

كنوك : زبون مناسبة ؟ أبدا . . أبدا . . نريد زبائن منتظمين . . زبائن مخلصين . .

موسكيه : ولكن ينبغي أولا أن يفترسهم المرض ..

كنوك : يفترسهم المرض ؟ هذا فهم عتيق انهزم أمام مقررات العلم الحديث ، وما الصحة إلا كلمة لاضير مطلقاً من حذفها من قاموسنا ، أما عن نفسي فإني لا أعرف إلا أناساً مصـــابين بدرجات متفاوتة بأمراض تتكاثر عليهم بدرجات متفاوتة ، وتشتد علتها بدرجات متفاوتة ، وبطبيعة الحال إذا مضيت تقول لهم إنهم يتمتعون بكامل الصحة فإن تصديقك عندهم هو منى القلب ، ولكنك تخدعهم ، والاعتذار الوحيد المعقول هو التعلل بكثرة العمل عند رفض قبول زبائن جدد : :

موسكيه : هذه مبادئ جميلة على كل حال :

كنوك : مبادئ تطابق كل المطابقة مبتكرات العصر الحديث ، امنحها فكرك يا مسيو موسكيه

فستجدها وثيقة الصلة بمبدأ الأمة المسلحة التى هى عماد قوة الأمم .

موسكيه : أنت رجل فكر يا دكتور كنوك ، ومهما قال أصحاب المذهب المادى : فإن الفكر هو الذى يقود العالم .

كنوك : [ينهض] انصـــت إلىّ [الاثنان واقفان وكنوك يتناول يد موسكيه] لعلى أكون رجلا مغروراً ولعل الزمن يخبئ لى خيبة أمل مريرة ، ولكن بعد سنة فى مثل يومنا هذا لا قبل ولا بعد ، إذا لم تكن قد كسبت دخلا صافياً قدره خمسة وعشرون ألفاً ، وهو دخل من حقك أن تناله ، وإذا لم تفز مدام موسكيه بما يتطلبه مقامها من أثواب وقبعات وجوارب فلك أن تصب علىّ لعناتك هنا وسأمنحك وجهى لتهوى على كل خد بصفعة . .

موسكيه : يا عزيزى الدكتور سأكون ناكراً للجميل

إذا لم أفض فى شكرك ، وسأكون وضيعاً
إذا لم أعنك بكل قواى . :

كنوك : حسن . . حسن . اعتمد أنت علىّ ، كما أعتمد أنا عليك . .

المشهد الرابع

كنوك والسيدة ذات الثوب الأسود

[عمرها خمس وأربعون سنة ، تنم هيئتها عن شح أبناء الريف ، وعن معاناتها لمرض الإمساك]

كنوك : آه . . ها هم الزبائن شرفوا [يرفع صوته يخاطب إنساناً من وراء الباب] إثنا عشر ؟ ! ينبغى إبلاغ القادمين الجدد ، أننى بعد الساعة الحادية عشرة والنصف لن أستقبل مرضى غرضهم الكشف مجاناً ، هل أنت يا سيدتى أول من قدم [يدخل السيدة ذات الثوب الأسود ويقفل الباب] أنت من أهالى المركز ؟

السيدة ذات الثوب الأسود : لا . . . إننى تابعة للبندر . .

كنوك : من سان موريس ذاتها ؟

السيدة : إننى أسكن فى المزرعة الكبيرة الواقعة على طريق لوشير .

كنوك : والمزرعة هى ملكك ؟

السيدة : نعم هى ملكنا أنا وزوجى . .

كنوك : إذا كنتما تزرعانها لحسابكما ، فلا شك أنكما غارقان فى العمل إلى الآذان . .

السيدة : وماذا تظن يا سيدى ؟ ، . . ثمانى عشرة بقرة ، وعجلان ، وثوران ، وحصان ، وفرس ، وست من الماعز ، وضعفها من الخنازير ، هذا علاوة على الدجاج والبط والحمام . .

كنوك : عجباً . . ! أليس عندكم خادم ؟

السيدة : نعم بطبيعة الحال . . ثلاثة رجال وامرأة عدا عمال باليومية فى موسم الحصاد . .

كنوك : قلبي معك ، لا شك لم يبق لك وقت للاعتناء بصحتك . .

السيدة : نعم لا أجد الوقت . .

كنوك : بالرغم من أنك مريضة ؟

السيدة : لا يصدق القول بأني مريضة ، وإنما أشعر بضعف . .

كنوك : نعم أنت تقولين إنه الضعف ، [يقترب منها] اخرجي لسانك . . . أرى أن شهيتك للطعام ضعيفة . .

السيدة : نعم . . هي كذلك . .

كنوك : أنت تعانين من الإمساك .

السيدة : نعم بقدر محسوس . .

كنوك : [وهو يفحصها] اخفضي رأسك ، تنفسي ، اسعلي ، ألم يحدث لك في صباك أنك وقعت من على سلم ؟

السيدة : لا أذكر . .

كنوك : [يعالج ظهرها بالجس والقرع عليه ، ثم يضغط فجأة على كليتيها] ألم تشعرى هنا بألم وأنت تأوين إلى فراشك فى المساء ؟

السيدة : نعم فى بعض الأحيان . .

كنوك : [وهو ماض فى فحصها] حاولى التذكر ، لا بد أنه كان سلساً عالياً . .

السيدة : جائز جداً . .

كنوك : [بلهجة مؤكدة] إنه كان سلما طوله ثلاثة أمتار ونصف مستنداً إلى الجدار ، ووقعت منه على ظهرك ، ومن حسن الحظ أن إليتك اليسرى هى التى أصيبت . .

السيدة : أى نعم . .

كنوك : هل سبق لك استشارة الدكتور باربالبد ؟

السيدة : أبداً . .

كنوك : لماذا ؟

السيدة : لأنه كان لا يكشف على المرضى مجاناً . .

[لحظة صمت]

كنوك : [يجعلها تجلس] هل تدركين ما بك ؟

السيدة : كلا .

كنوك : [يجلس أمامها] هذا أفضل ، ولكن هل لك رغبة فى الشفاء أم ليس لك رغبة ؟

السيدة : نعم لى رغبة فى الشفاء : ؟

كنوك : الأفضل إذن أن أنبهك فوراً أن العلاج سيكون طويلا ونفقته كبيرة : .

السيدة : آه . . يا إلهى . . ولم هذا ؟

كنوك : لأنه لا يمكن فى خمس دقائق شفاء مرض عمره أربعون عاماً . .

السيدة : أربعون عاماً ؟ !

كنوك : نعم . . أى منذ أن وقعت من على السلم . .

السيدة : وكم سيكلفنى العلاج ؟

كنوك : كم يبلغ ثمن العجل الآن ؟

السيدة : هذا يتوقف على السوق وعلى حجم العجل ، ولكن لا يمكن شراء عجل

يملأ العين بأقل من أربعمائة أو خمسمائة فرنك . .

كنوك : وثمن الخنزير السمين ؟

السيدة : يبلغ ثمن بعضها ألفاً . .

كنوك : إذن سيكلفك العلاج عجلين وخنزيرين تقريباً . .

السيدة : آه . . آه . . ثلاثة آلاف فرنك تقريباً ؟ هذه نكبة يا إلهى !

كنوك : إذا كنت تفضلين الحج إلى مكان مقدس طلباً للشفاء فإنى لا أمانع فى ذلك . .

السيدة : مثل هذا الحج يكلف كثيراً أيضاً ، ثم يكون بلا جدوى فى أغلب الأحيان . .
[فترة صمت] ولكن هل بى شىء جسيم حتى يستدعى الأمر كل هذا العناء ؟

كنوك : [وهو يبالغ فى معاملتها بأدب ومجاملة]
سأشرح لك الأمر على السبورة فى دقيقة واحدة [يذهب إلى السبورة ويخط عليها رسماً تخطيطياً] هـذا هو قطاع من نخاعك

الشوكى وفى صورة إجمالية ، أفاهمة أنت ؟ تتبينين هنـــا مجمع أعصاب توريك ، وهنا عمود كلارك . . هل أنت معى ؟ حسناً . . فحينما سقطت من على السلم تحرك توريكك وكلاركك إلى اتجاه عكسى ، [يرسم أسهماً تبين الاتجاه] حركة بمقدار ١ : ١٠ من المليمتر ، ستقولين إن هذه مسافة هينة جداً . : طبعاً . . ولكنهما اتخذا وضعاً سيئاً ، وثم عندك جذب مستمر يضغط على مجمع الأعصاب [يمسح أسابه] :

السيدة : يا إلهى . . يا إلهى . .

كنوك : ليكن فى علمك أنك لن تموتى بين عشية وضحاها ، فأمامك وقت . :

السيدة : آه . . آه . . ما أسوأه من حظ أن سقطت من على هذا السلم . :

كنوك : إنى أتساءل : أليس من الأفضل ترك الحالة على ما هى عليه ، فإن المال

كسبه عـــير ، أما سنى الشيخوخة
فوفورة وإن كانت مباهجها قليلة : .

السيدة : سأكون صفيقة وأسألك : هل تستطيع
إذا عالجتنى بأيسر جهد أفلا أنال الشفاء
بثمن أقل بشرط أن يكون العلاج بالعليع
متقناً ؟

كنوك : كل الذى أستطيع اقتراحه عليك هو أن
تضعى نفسك تحت الملاحظة ، ولن
يكلفك هـــذا شيئاً تقريباً وبعد بضعة
أيام ستتبينين بنفسك كيف يكون سير
المرض ثم تصدرين قرارك ؟ ؟

السيدة : نعم هذا هو الرأى . .

كنوك : حسن ؟ : ستعودين إلى دارك ؟ ؟
هل جئت راكبة ؟

السيدة : كلا ، وإنما سيراً على الأقدام . .

كنوك : [وهو جالس على المكتب يكتب الروشتة]
لا مفر لك من العثور على عربة تعود بك ،
وبمجرد أوبتك تأوين إلى فراشك فى

حجرة لا يكون بها أحد غيرك بقدر الإمكان ، وأغلقى النوافذ وأسدلى الستائر حتى لا يضايقك النور ، وأمنعى أحداً من أن يكلمك . الأكل مدة أسبوع مقتصر على السوائل وحدها : تناولى كوبا من ماء فيشى كل ساعتين ، وعند الضرورة نصف بسكوينة مرة فى الصباح ومرة فى المساء بعد غمسها فى قليل من اللبن ؛ ومع ذلك فإنى أفضل الاستغناء عن البسكويت ، لا يتأتى لك القول بأننى وصفت لك علاجاً غالياً جداً ، وسترى بعد أسبوع كيف تكون حالتك ، فإذا احتفظت بشجاعتك ، وأمكنك استعادة قوتك وبشاشتك ، فإن هذا يعنى أن المرض أقل خطراً مما يتصور ، وسأكون أول من يطمئنك ، أما إذا شعرت على العكس بضعف عام وثقل فى الرأس وخمول عند اليقظة ، فلن يبقى

محل للتردد وحينئذ نبدأ فى العلاج . ه
هل اتفقنا ؟

السيدة : [تتنهد] الرأى رأيك . .

كنوك : [يشير إلى الروشتة] كتبت لك على سبيل التذكير فى هذه الروشتة كل التعليمات ، وسأذهب لزيارتك قريباً [يسلم إليها الروشتة ويشيعها وينادى لمن وراء الباب : يا ماريت : ساعدى السيدة على نزول درجات السلم وعلى عثورها على عربة] . . [يلمح المشاهد وجوه نفر من الزبائن يستقبلون السيدة وهى خارجة بخوف واحترام] .

المشهد الخامس

كنوك والسيدة ذات الثوب البنفسجى

[عمرها ستون سنة . . كافة ما عليها من ثيابه من لون بنفسجى ، تتوكأ بكبرياء على عصا يألفها هواة تسلق الجبال] .

السيدة ذات الثوب البنفسجى : [بلهجة فيها استعلاء] لا شك

يدهشك يا دكتور مجيئى إليك . .

كنوك : نعم بعض الدهشة يا سيدتى . .

السيدة : لك فى الواقع أن تعجب عجباً غير قليل من أن تأتى لاستشارة مجانية سيدة زوجها من أسرة بونس وأبوها من أسرة لامبوماس .

كنوك : أفضل أن أقول إن فى مجيئها تشريفاً لى : ؛

السيدة : ربما ستقول إن هذه إحدى نتائج الفوضى السائدة هذه الأيام ، فعلى حين نرى عدداً كبيراً من أوشاب الناس وتجار الخنازير يتبخترون فى العربات الفاخرة ويختسون الشمبانيا مع الممثلات ، إذا بسيدة يجرى فى عروقها دم أسرة لامبوماس ، وتمتد سلالة أسرتها العريقة بلا انقطاع إلى القرن الثالث عشر ، وكانت تملك فى وقت ما نصف هذه البلاد وترتبط بصلات وثيقة مع كافة أسر النبلاء والأعيان فى هذه المقاطعة ، ينحدر بها

الحال إلى حد أن تقف فى الصف تنتظر
دورها مع الفقراء والفقيرات من أهالى
سان موريس ، أعترف يا دكتور أن
الحال فيما مضى كانت أحسن من ذلك ؟

كنوك : [وهو يجلسها] نعم مع الأسف ياسيدتى . .

السيدة : لا أقول لك إن دخلى قد بقى كما كان من
قبل أو أننى احتفظت بمنزل يعج بستة
من الخدم وبإصطبل به أربعة خيول كما
كانت تتطلب مكانة أسرتنا حتى موت
عمى ، بل إننى بعت فى العـــام الماضى
مزرعة ورثتها عن جدتى مساحتها مائة
وستون هكتارا هى مزرعة ميشويل ،
وهذا الاسم فى قول قسيسنا مشتق من
كلمة يونانية وأخرى لاتينية تفيد معنى
كراهية الفطر ، والسبب أنه لم يعثر قط
على نبت واحد من هذا الفطر فى المزرعة
كلها كما لو كان بين الأرض وبينه
كراهية ، والواقع أنى لم أصب منها بعد

خصم الضرائب ونفقات التعمير إلا دخلا ضئيلا وبالأخص بعد وفاة زوجي فإن المزارعين عمدوا إلى استغلال الموقف وأخذوا يلاحقونني بطلب تخفيض الإيجار أو تأجيل دفعه ، لقد ضقت ذرعاً ، كفى . . كفى . . أفلا تعتقـــد إذن يا دكتور بعد استعراضي للموقف على مختلف جوانبه أنني كنت على حق في التخلص من هذه المزرعة ؟

كنوك : [لم يقطع عن الإنصات إليها بانتباه] هـــذا يا سيدتي هو اعتقادي وبالأخص إذا كنت تحبين نبات الفطر ، وإذا كنت من ناحية أخرى قد أحسنت توظيف ثمن المزرعة . .

السيدة : أي . . لقد وضعت أصبعك على الجرح الدامي ، فإني أسأل نفسي ليل نهار عما إذا كنت أحسنت توظيف نقودي فإني أشك في ذلك كثيراً ، فقد اتبعت نصيحة هذا

الموثق الأحق . وإن كان أطيب الرجال ، ولكنى أعتقد أنه أقل فطنة من المنضدة الصغيرة التى تستعين بها زوجته العزيزة كما تعلم فى تحضير الأرواح ، وقد اشتريت بالأخص أسهم شركات مناجم الفحم . فما رأيك يا دكتور فى هـــذه الأسهم ؟

كنوك : هى على العموم أوراق مالية لها قيمتها ، وهى محببة بعض الشىء للمضاربين لأن سعرها يتقلب بين ارتفاع غير معقول وهبوط لا تفسير له .

السيدة : آه . . يا إلهى . . إن جلدى يقشعر إذ يخيل إلى أننى اشتريتها فى ذروة ارتفاع أسعارها وقد وضعت فيها أكثر من خمسين ألف فرنك . وإنه لمن الحماقة لمن لا يملك ثروة طائلة أن يوظف فى أسهم شركات مناجم الفحم مثل هذا المبلغ الذى دفعته .

كنوك : فى الواقع يخيل إلىّ أن مثل هذا التوظيف

ينبغى ألا يستأثر بأكثر من واحد على عشرة من ثروة الشخص كلها . :

السيدة : آه واحد على عشرة لا أكثر ؟ فإذا كان التوظيف لا يزيد على هذه النسبة فأنت لا تصفه بالحماقة ؟

كنوك : بالتأكيد لا . .

السيدة : أنت تطمئننى يا دكتور ، وقد كنت متلهفة على من يطمئننى ، أنت لا تدرى أى هم ألقاه فى رعاية ما فى يدى من قرشين ، وأقول لنفسى أحيانا : حبذا بهموم أخرى لتطرد هذا الهم عنى ، فإن الإنسان جبل يا دكتور على طبع يرثى له ، فقدر عليه ألا يفلح فى إقصاء هم إلا بشرط أن يحل هم آخر محله . ولعلنا ننعم على الأقل بشىء من الراحة فى هذا التغيير والتبديل ، فإنى أود أن أنقطع عن التفكير طول النهار فى المستأجرين والمزارعين والأسهم والأوراق المالية لأننى لا أستطيع فى العمر

الذى بلغته أن أجرب المغامرات الغرامية . :
آه . . آه . . آه . . ولا أن أقوم برحلة
حول العالم ، ولكنك تنتظر منى ولاريب
أن أفسر لك لماذا اتخذت مكانى فى الصف ،
أنتظر كشفاً مجانياً .

كنوك : مهما يكن السبب يا سيدتى فإنه بلاشك
سبب وجيه .

السيدة : إليك إذن التفسير ، أردت أن أضرب
مثلا ، فقـــد وجدت أنك استلهمت
يا دكتور فكرة بديعة نبيلة ولكنى أعلم
أهل بلدى ، فقلت لنفسى هذا شىء
لم يألفوه ، فهم إذن لن يذهبـــوا ،
وسيكون الإعراض هو كل ما يجنيه هذا
السيد جزاء على كرمه ، حينئذ قالت لى
نفسى إنهم لو رأوا ســـيدة زوجها من
أسرة بونس وأبوها من أسرة لامبوماس
لاتتردد فى افتتاح الكشف المجانى ، فإنهم
لن يخجلوا من أن يحذوا حذوها على مرأى

من النـــاس ، ذلك أن أقل تصرفاتى وحركاتى هى موضع المراقبة والتعليق ، وهذا شىء طبيعى .

كنوك : إن هـــذا سعى محمود منك ياسيدتى وأشكرك عليه . .

السيدة : [تنهض وكأنها توذنه بأنها تنصرف] كان لى غاية السرور يا دكتور أننى تعرفت إليك وأننى ألزم دارى بعد الظهر كل يوم ، ويأتى لزيارتى بعض الأصدقاء فنجتمع حول براد شاى من عهد لويس الخامس عشر ورثته عن أجدادى ، فسيكون لك دائماً فنجان معـــد لك ينتظرك : : [كنوك يحنى أمامها ، على حين أنها تتقدم ثانية نحو الباب] أنت تعلم أننى حقيقـــة معذبة جداً جداً بسبب المستأجرين والأوراق المالية ، وقد ينقضى الليل كله دون أن أنام ، ياله من إعياء فظيع . . أتعرف يا دكتور حيلة تجلب النوم ؟

كنوك : تعانين الأرق منذ زمن طويل ؟

السيدة : منذ زمن طويل جداً . . جدا . .

كنوك : وهل تحدثت عنه إلى الدكتور باربالياد ؟

السيدة : نعم . . مراراً عديدة . .

كنوك : وماذا قال لك ؟

السيدة : نصحنى أن أقرأ كل مساء ثلاث صفحات من القانون المدنى ، إنها كانت دعابة منه ؛ فإن الدكتور باربالياد لم ينظر إلى الأمر نظرة جدية . .

كنوك : لعله كان مخطئاً لأن من الأرق حالات تنم عن خطر بليغ . .

السيدة : حقاً . . ؟

كنوك : قـد يكون سبب الأرق راجعاً إلى اضطراب أساسى فى سريان الدم فى عروق المخ وبالأخص إلى علة فى هذه العروق التى تسمى « خرطوم النرجيلة »

وقد تكون عروق مخك يا سيدتى على هذه الصورة . .

السيدة : يا إلهى . . . خرطوم الزرجيلة ؟ أيكون للتبغ يا دكتور دخل فى ذلك ؟ إنى أستعمل أحياناً السعوط . .

كنوك : هذه مسألة ينبغى فحصها ، وقد يأتى الأرق أيضاً من إصابة بالتهاب الأعصاب تؤثر على المادة السنجابية تأثيراً عميقاً متوالياً . .

السيدة : يا لها من حالة فظيعة . . . اشرحها لى يا دكتور . .

كنوك : تصورى أخطبوطاً أو عنكبوتاً ضخماً يلتهم مخك على مهل قرضاً وامتصاصاً وتمزيقاً . .

السيدة : أوه [تتهاوى فى مقعد] من يسمع كلامك معذور إذا أغمى عليه من شدة الفزع ؛ لا شك أن هذه هى حالتى فإنى أشعر بها

بوضوح ، أرجوك يا دكتور اقتلنى على الفور بخنقة واحدة ، ولكنى أراجع نفسى وأقول : لا تتخل عنى يا دكتور فقد هويت إلى أعمق درجات الفزع . . :

[صمت] لا بد أنها علة لا شفاء لها أبداً علة مميتة . .

كنوك : كلا . .

السيدة : هل هناك أمل فى الشفاء ؟

كنوك : نعم . . على مدى الزمن . .

السيدة : لا تخدعنى يا دكتور . . أريد أن أعرف الحقيقة . .

كنوك : المسألة كلها تتوقف على انتظام العلاج ومدته . .

السيدة : علاج ماذا ؟ أهذه الأشياء التى تشبه خرطوم الزجيلة أو العنكبوت ؟ إذ أشعر بوضوح أنه العنكبوت . :

كنوك : الشفاء ميسور من هذا وذاك ، وما كنت

لأجرؤ على أن أمد فى هذا الأمل لمريض من عامة الناس لا يتيح له وقته ولا موارده أن يعالج نفسه بأحدث الوسائل العلمية ، أما بالنسبة إليك فالأمر مختلف . .

السيدة : [تنهض] سأكون بين يديك مثالا للطاعة خاضعة كالجرو الصغير ، وسأتحمل كل علاج تقرره وبخاصـــة إذا لم يؤلمنى ألماً شديداً . .

كنوك : لن تشعرين بأقل ألم إذ أن الأشعة هى التى سنلجأ إليها كوسيلة للعـــلاج ، والصعوبة الوحيدة هى أن يكون لك صبر على متابعة العلاج بأناة لمدة سنتين أو ثلاث ، وأن يكون بجانبك طبيب يلزم نفسه ألا ينقطع عن مراقبة تقدمك نحو الشفاء وأن يضبط زمن جلسات الأشعة ضبطاً دقيقاً ، وأن لا يتوانى عن زيارتك كل يوم تقريباً . .

. .

السيدة : آه . . أما عن نفسى فإن فضيلة الصبر لا تنقصنى ، ولكنك يا دكتور أنت الذى قد لا تريد أن تواظب على علاجى طوال المدة اللازمة لى . .

كنوك : لا أريد . . لا أريد . . أنا لا أريد غير ذلك . المهم أن أقدر على ذلك ، هل تسكنين بعيداً عن هنا ؟

السيدة : أبداً ، بل على بعد خطوتين ، فنزلى أمام القبانى العمومى . .

كنوك : سأحاول أن أخطف رجلى لأذهب إليك كل صباح فيما عدا يوم الأحد وفيما عدا يوم الاثنين بسبب مواعيد عيادتى ٥ ٥

السيدة : ألا يكون يومان متتاليان فترة انقطاع أطول مما ينبغى ، وهكذا أبقى بدون علاج من السبت إلى الثلاثاء ؟

كنوك : سأترك لك تعليمات تفصيلية دقيقة ، ومع ذلك إذا وجدت فى متسع وقتى دقيقة

فإنى أمر عليك يوم الأحد صباحاً أو يوم الاثنين بعد الظهر . .

السيدة : الحمد لله . . الحمد لله . . [تنهض] وما الذى ينبغى لى أن أفعله فوراً ؟

كنوك : عودى إلى دارك والزمى حجرة نومك ، وسأذهب إليك غداً صباحاً ، وأتولى فحصك فحصاً شاملا . .

السيدة : أليس لى دواء أتناوله اليوم ؟

كنوك : هيـــه . . نعم [يكتب الروشتة بسرعة] مرى على مسيو موسكيه واسأليه أن يعد لك فوراً هذه الروشتة الصغيرة الأولى : :

المشهد السادس

كنوك — وفتيان من أهل الريف

كنوك : [ينادى لمن وراء الباب] ماريت . : : يا ماريت ، ما هـــذا الحشد الغفير [ينظر إلى ساعته] ألم تعلنى أن العيادة

المجانية تنتهى عند الساعة الحادية عشرة والنصف ؟

صوت ماريت : نعم أعلنتهم ، ولكنهم يريدون البقاء . .

كنوك : من هو صاحب الدور الأول ؟ [يتقدم إليه الفتيان وهما يكتمان الضحكات ويتبادلان اللكمات بالكوعين والغمزات بالأعين ثم ينفجران فى ضحكة يكتمانها بوضع اليد على الفم ومن ورائهما يشاهد الأهالى وهم يجدون فى تصر فاتهما منظراً ظريفاً مسلياً ، فتثور بينهم ضجة والدكتور كنوك يزعم أنه لا يرى شيئاً] من منكما صاحب الدور ؟

الفتى الأول : [ينظر جانباً ويخنق ضحكة متهيبة] هئ . . هئ . . هئ . . [نحن الاثنين] هئ . . هئ . . هئ !

كنوك : ما أحسبكما متقدمين معاً ؟

الفتى الأول : نعم . . هئ هئ ! نعم . . نعم [صوت ضحك من وراء الباب] .

كنوك : لا أستطيع قبولكما معاً ، فليقع اختياركما على واحد منكما ، ثم يخيل إلى أننى

لم أركما من قبل ، فهناك أناس قدموا قبلكما . .

الفتى الأول : لقد تخلوا لنا عن دورهم ، لك أن تسألهم . هيْ : : هيْ . . هيْ ! [ضحكات مسموعة ومكتومة] .

الفتى الثانى : [وقد تملك جرأته] نحن الاثنين متلازمان دائماً . . نحن ثنائى لا ينفصل . هيْ هيْ هيْ ! [ضحكات تنبعث من الأهالى] :

كنوك : [يضغط على شفتيه ويقول بلهجة فى غاية البرود] ادخلا [يقفل الباب ثم يقول للأول : اخلع ثيابك ، ويشير إلى الثانى : وأنت اجلس هنا] [الفتيان يتبادلان الإشارات والضحكات المكتومة بشىء من الافتعال]

الفتى الأول : [وقد خلع ملابسه إلا السروال والقميص] أينبغى أن أخلع بقية ثيابى وأصبح عارياً ؟

كنوك : اخلع أيضاً قميصك [الفتى يلبس تحت القميص فانلة بغير أكمام] هذا يكفى [كنوك

يقترب منه ويدور حوله يجس جسده ويدق عليه ويضع أذنه هنا وهناك ويجذب جلده ويقلبه جفنيه وشفتيه ، ثم يتناول جهاز فحص الحلق ذا المرآة ويلبسه على رأسه متمهلا ثم يضيء فجأة فى وجه الفتى نوراً يعمى الأبصار ويسلطه إلى داخل حلقه وعلى عينيه ، ولما تبين من الفتى استسلامه يشير كنوك له إلى المقعد الطويل] :

ارقد هنا . . هيا ضم ركبتيك [يجس البطن ويضع السماعة هنا وهناك] مد ذراعك . .

[يفحص النبض ويقيس ضغط الدم] حسن . .

ارتد ملابسك [لحظة صمت والفتى يرتدى ثيابه] هل أبوك حى ؟

الفتى الأول : كلا . . إنه قد مات . .

كنوك : موتاً مفاجئاً ؟

الفتى الأول : نعم .

كنوك : هذا هو تقديرى . . لاشك أنه لم يكن متقدماً فى العمر .

الفتى الأول : كلا . . إنه وصل إلى التاسعة والأربعين .

كنوك : أعاش إلى هـــذا الحد ؟ [صمت طويل .

لم يبق لدى الفتيين أقل رغبة للضحك ، ثم يذهب كنوك ينقب فى ركن من الحجرة بين أشياء مستندة إلى قطع من الأثاث ، ثم يستخرج منها لوحا من الكرتون تبين بالصورة الأحشاء الداخلية عند الرجل السليم وعند الرجل السكير المدمن ، ثم يقول للفتى الأول بلهجة مؤدبة] سأوضح لك كيف أصبحت أحشاؤك الداخلية الرئيسية : هاتان هما الكليتان عند الرجل السليم ، وهذه هى صورة كليتاك أنت [بين كل جملة وأخرى فترة تريث] هذا هو كبدك . . هذا هو قلبك . . ولكن القلب عندك أشد عطبا مما تبينه الصورة [ثم يمضى كنوك بهدوء ليعيد اللوحات إلى مكانها] .

الفتى الأول : [بخجل شديد] إذن ينبغى أن أنقطع عن شرب الخمر . .

كنوك : هذا شأنك . . افعل ما تراه .

[لحظة صمت]

الفتى الأول : هل هناك دواء أتناوله ؟

كنوك : لا فائدة فى ذلك أبداً [إلى الفتى الثانى] : جاء دورك الآن . .

الفتى الأول : إن شئت يا حضرة الدكتور عـدت للكشف أدفع أجرة . :

كنوك : لا فائدة من ذلك أبداً . :

الفتى الثانى : [وهو منكمش متضائل] إننى يا حضرة الدكتور لا أشكو من أى مرض . .

كنوك : وكيف تعرف ذلك ؟

الفتى الثانى : [يتراجع وهو يرتعد] صحتى على ما يرام يا حضرة الدكتور .

كنوك : إذن لماذا جئت ؟

الفتى الثانى : [دون أن تتغير حالته] لأصحب رفيقى . .

كنوك : أليس هو بالرجل الرشيد يملك زمام نفسه فيأتى وحده ؟ هيا اخلع ملابسك .

الفتى الثانى : [يتجه للباب] كلا . . كلا يا حضرة الدكتور ، ليس اليوم ، سأعود يا حضرة الدكتور ! [صمت] .

كنوك : [يفتح الباب ، تسمع ضجة الأهالى وهم يضحكون من سابق ويترك كنوك الفتيين يمران فيخرجان وعلى وجهيهما علامات متباينة تنم عن الإعياء والملل ثم يشفان الزحام وقد هبط عليه فجأة صمت جنائزى] .

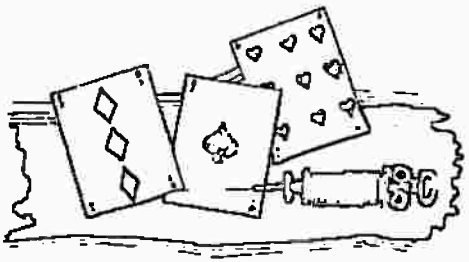

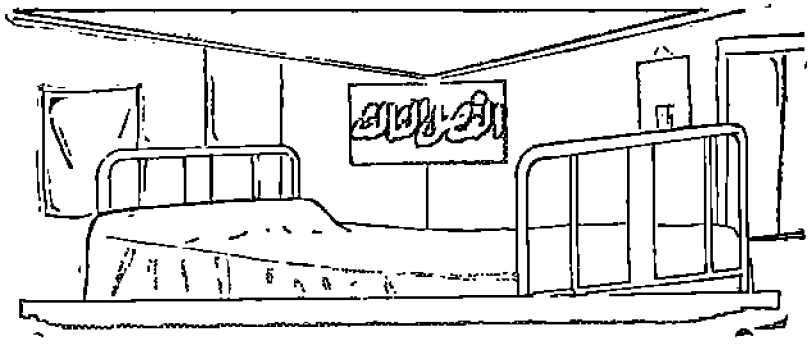

[الردهة الكبيرة فى فندق المفتاح ، بها كل علامات تحول فندق مدينة فى الريف إلى فنـــدق مخصص للاستشفاء ، لا يزال باقياً على الجدران « نتائج تبين تاريخ اليوم » وعليها أسماء مهديها من شركات بيع الخمور ، إلا أن العين تقع على مقابض وحوافى الأثاث مكسوة بالنيكل والجدران مطلية بدهان أبيض ، ومناشف بيض معقمة] .

المشهد الأول

مدام ريمى — سيبيون

مدام ريمى : هل وصلت العربة يا سيبيون ؟

سيبيون : نعم يا سيدتى .

مدام ريمى : قيل إن الطريق سدته الثلوج . .

سيبيون : المسألة بسيطة لايزيد التأخير عن ربع ساعة .

مدام ريمى : لمن هذا المتاع ؟

سيبيون : لسيدة من ليڤرون . . جاءت للكشف عليهـــا . .

مدام ريمى : ولكننا حسبناها لاتصل إلا هذا المساء . .

سيبيون : هذا خطأ فإن السيدة القادمة هذا المساء هى من سان مارسيلين . .

مدام ريمى : وهذه الحقيبة ؟

سيبيون : هى حقيبة « أبوكشورة » . .

مدام ريمى : كيف ؟ مسيو باربالييد هنا ؟

سيبيون : هو قادم خلفى بمسافة خمسين مترا . .

مدام ريمى : ما هو غرضه من المجىء ؟ ليستعيد عيادته بالطبع . .

سيبيون : ربما جاء يطلب الكشف عليه .

مدام ريمى : ولكن لم يبق عندنا من حجر خالية إلا الحجرة رقم ٩ ورقم ١٤ ، وقد حجزت رقم ٩ للسيدة القادمة من سان مارسيلين ، وستكون الحجرة رقم ١٤ للسيدة القادمة

من ليفرون ، فلماذا لم تقل « لأبو كشورة » إنه لن يجد له حجرة خالية ؟

سيبيون : لأنى كنت أعلم أن الحجرة رقم ١٤ الخالية أصبحت محجوزة للسيدة القـــادمة من ليفرون . . وما كان لى بغير تعليمات أن أفاضل بينها وبين « أبو كشورة . . »

مدام ريمى : هذا شىء يضايقنى جداً . .

سيبيون : دبرى أنت حلا للإشكال أما أنا فينبغى أن أنصرف لخدمة المرضى . .

مدام ريمى : لا لزوم لذلك يا سيبيون انتظر مسيو باربالييد واشرح له أن جميع الحجرات مشغولة ، فإننى لا أستطيع أن أقول له ذلك بنفسى . .

سيبيون : آسف يا سيدتى ، أصبح وقتى لا يتسع إلا لارتداء معطفى فإن الدكتور كنوك على وشك الوصول وعلىّ أن أجمع البول من الحجرة رقم ٥ و ٨ والبصاق من الحجرة رقم ٢ وأن أقيس حرارة شاغلى الحجرات

رقم ١ ، ٣ ، ٤ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨ وبقية الحجـــرات أيضاً ، ولا أود أن يفتح حلقه علىّ . .

مدام ريمى : أفلا تحمل على الأقل متاع هذه السيدة إلى الدور الأعلى ؟ . .

سيبيون : والخادمة . . ماذا تفعل ؟ هل « تلضم » اللؤلؤ ؟ .

[يخرج سيبيون من المسرح وتحـذو مدام ريمى حذوه حين ترى باربالييد قادماً] .

المشهد الثانى

باربالييد وحده ثم تأتى إليه الخادم

باربالييد : ألا يوجد أحـــد هنا ؟ مدام ريمى ! سيبيون ! هذا شىء محير ، ها هى حقيبتى وجدتها على الأقل . . سيبيون . .

الخادمة : [تدخل وهى فى ثياب الممرضات] ســـيدى ما هو طلبك ؟

باربالييد : أريد أن أرى صاحبة الفندق : :

الخادمة : لماذا يا سيدى ؟

الدكتور : لتعطينى حجرة . .

الخادمة : أنا لاخبر عندى ، هل أنت من المرضى الذين طلبوا حجز حجرة لهم ؟ . .

الدكتور : إننى لست من بين المرضى يا آنسة . . إننى طبيب ! : .

الخادمة : آه . . جئت تعمـــل مساعداً للدكتور ؟ الواقع أنه فى حاجة إلى من يساعده . .

الدكتور : ولكن . . ألا تعرفيننى يا آنسة ؟

الخادمة : كلا . . أبداً . .

الدكتور : الدكتور باربالید ! كنت لثلاثة أشهر خلت طبيب سان موريس ، لاشك أنك لست من أهالى البلد : .

الخادمة : كلا بل إننى من أهالى البلد ، ولكن ماكنت أعلم أنه كان بها طبيب قبـــل الدكتور كنوك [لحظة سمت] عن إذنك يا سيدى ، السيدة صاحبة الفندق ستأتى

إليك ولا ريب ، فإنه أمامى أن أعتم أكياس الوسائد .

الدكتور : هذا الفندق أصبح له وجه عجيب . .

المشهد الثالث

باربالياد — ثم مدام ريمى

مدام ريمى : [تسترق النظر] إنه لا يزال باقياً [ثم تقرر قرارها] صباح الخير يا مسيو باربالياد ، أرجو أن لا تكون قد أتيت تطلب سكناً عندنا .

الدكتور : أى نعم ، كيف حالك يا مدام ريمى . .

مدام ريمى : على أحسن حال . . ليست لدينا حجرة واحدة خالية . .

الدكتور : هل اليوم هو يوم السوق ؟

مدام ريمى : كلا . . إنه ليس يوم السوق . .

الدكتور : وكل الحجرات عندك مشغولة فى يوم

هو ليس يوم السوق ؟ ولم كل هؤلاء هؤلاء الناس إذن ؟

مدام ريمى : مرضى . .

الدكتور : مرضى ؟

مدام ريمى : نعم أناس تحت العلاج . .

الدكتور : ولماذا يقيمون عندك ؟

مدام ريمى : لأن سان موريس ليس بها فندق غير هذا الفندق ، ومع ذلك فلا أحسبهم سيئى البخت أن نزلوا عندنا انتظاراً لإقامة المبنى الجديد ، فإن علاجهم يتم هنا ، ونحن نتبـــع بدقة كل التعليمات الطبية الحديثة . .

الدكتور : ولكن من أين جاءوا ؟

مدام ريمى : المرضى ؟ إنهم منذ وقت يأتون من كل حدب وصوب ومن قبل كانوا أناساً غرباء على سفر .

الدكتور : لا أفهم شيئاً . .

مدام ريمى : نعم مسافرون نزلوا سان موريس لعمل

لهم ، وبلغ أسماعهم اسم الدكتور كنوك من أهالى البلد كلهم ، فحدثوا أنفسهم أن ينتهزوا الفرصة ويطلبوا استشارته ، وبالطبع كانوا يجهلون حالتهم من الوجهة الصحية وإن خامرهم شك ، بأنهم ربما يعانون مرضاً من الأمراض ، وإذا لم يكن حسن حظهم قد قادهم إلى سان موريس لكان نفر منهم قد أهيل عليه التراب اليوم . .

الدكتور : ولماذا كانوا سيموتون ؟

مدام ريمى : لأنهم فى غفلتهم عن حالتهم الصحية كانوا سيداومون على شرب الخمر والتهام الطعام وارتكاب مئات من الحماقات الأخرى .

الدكتور : وكل هؤلاء المسافرين بقوا هنا ؟

مدام ريمى : نعم ، فإنهم كانوا إذا عادوا من زيارة الدكتور كنوك سارعوا إلى الرقاد فى فراشهم وبدأوا العلاج ، أما اليوم فالحال

لم يعد كذلك ، فإن النازلين عندنا
قد قاموا بالرحلة إلينـــا خصيصاً ،
ومما يكربنى أن الحجرات لا تكفيهم
وسنشيد مبنى آخر . :

الدكتور : هذا شيء عجيب جداً . :

مدام ريمى : [بعد تفكير] حقاً إن ما تراه يبدو
ولا ريب شـــيئاً عجيباً لك أنت ،
ولو كانت لك حياة مثل حياة الدكتور
كنوك لدعوت الله أن ينقذك . .

الدكتور : هيه . . وكيف حياته هو إذن ؟

مدام ريمى : حياة رجل محكوم عليه بالأشغال الشاقة ،
فما يكاد ينهض من فراشه حتى يجرى
يؤدى زياراته ، وفى الساعة العاشرة يأتى
للفندق وستراه بعد خمس دقائق ،
ثم يؤوب إلى عيادته فيستقبل المرضى ،
ثم يخرج من جديد يؤدى زياراته ، من
أول المركز إلى آخره ، لا أنفى أن
لديه سيارة : سيارة جديدة فخمة يقودها

بسرعة كبيرة ، ولكنى واثقة أنه تمر عليه أحيان كثيرة تقتصر فيها وجبة الغذاء على « ساندويتش » واحد . .

الدكتور : يحدث لى أيضاً فى اليوم أن أكتفى « بساندويتش » . .

مدام ريمى : آه كان فى إمكانك هنا أن تنعم بحياة محتشمة هادئة [تميل لمداعبته] أتذكر لعبك « للبلياردو » فى مقصف الفندق ؟

الدكتور : لا مفر من الاعتقاد أن الناس كانوا فى زمانى يتمتعون بصحة أحسن . .

مدام ريمى : لا تقل هذا يا مسيو باربالبد ، إن الناس هنا كانوا لا يبالون بعلاج أنفسهم ، هذا هو الفرق ، هناك ظن بأننا أهل الريف أناس أجلاف لم يتمدنوا ، وأننا لا نبالى أقل مبالاة بسلامة الأبدان ، وأننا ننتظر حتى تأذن ساعتنا فنتفق كما ينفق الحيوان ، وأن الدواء والعلاج والأجهزة الطبية وكل مبتكرات المدنية

الحديثة هى جديرة بسكان المدن ، هذا خطأ يا مسيو باربالييد ، فإننا لا نقل فى تقدير أنفسنا عن بقية الناس ، وإذا كان الواحد منا لا يحب أن يبذر نقوده ، فإنه لا يتردد أن يدفع ثمن ما لا غنى عنه ، أما أنت يا مسيو باربالييد فلا تتصور الفلاحين إلا كما كانوا فى الماضى يتعاملون بالمليم لا بالقرش ويفضلون فقد عين أو ساق على شراء دواء بثلاثة فرنكات ، لقد تغيرت الأحوال والحمد لله . .

باربالييد : ليكن الأمر كذلك ، فإذا كان الناس أصبحوا يضيقون ذرعاً بحسن صحتهم ويريدون التمتع بفخفخة عد أنفسهم من المرضى ، فهم يخطئون إذا لم يحققوا غرضهم دون أن يبالوا بأى شىء آخر ، ثم إن هذا كله مكسب للطبيب .

مدام ريمى : [وهى تحتد] على كل حال لن يسمح

لك أحد أن تصف الدكتور كنوك بأنه رجل يجرى وراء مصلحته الشخصية ، فإنه هو الذى بدأ لأول مرة العيادة المجانية التى لم نكن نعرفها هنا ، أما عن ذهابه لزيارة مريض ، فإنه لا يطلب أجراً إلا ممن هو قادر على دفعه ، ولو فعل غير ذلك لكان فعله مدعاة للأسف ، ولكنه لا يقبل شيئاً قط من الفقراء ، إن الناس تشاهده يقطع المركز بطوله ينفق عشرة فرنكات ثمناً للبنزين ثم يقف بسيارته الفخمة أمام كوخ عجوز فقير لا يمتلك حتى قطعة جبن من لبن الماعز لتعطيها إليه ، ولا ينبغى كذلك التلميح بأنه يقنع الأصحاء بأنهم مرضى ، فأنا أول من أشهد على نفسى بأننى جعلته يكشف علىّ ربما عشر مرات منذ أن أصبح يأتى للفندق كل يوم وفى كل مرة يكشف على بنفس الصبر والأناة

من الرأس إلى القدم مستعيناً بكل أدواته وأجهزته ويكرس لى ربع ساعة على الأقل وكان يقول لى فى كل مرة إننى غير مصابة بمرض وأنه لا داعى للقلق ، وما على إلا أن أتمتع بمأكلى ومشربى وحاولت جهدى أن أدفع له أجراً ولو مبلغاً قليلا ، فكان يأبى ، وإنه يخص مسيو برنار المدرس بنفس المعاملة بعد أن استحوذت عليه فكرة أنه من حاملى الميكروبات ، واســـودت الحياة فى عينيه،فمن أجل تطمينه لم يتراجع الدكتور كنوك عن تحليل برازه ثلاثة مرات ولكن هاهو ذا مسيو موسكيه قادم بعد أن أخذ فى حضور الدكتور عينة من دم شاغل الحجرة رقم ١٥ ، ويمكنك التحدث إليه [بعد فترة تفكير] ثم اعطنى على كل حال حقيبتك وســأدبر لك مسكناً . . .

المشهد الرابع

باربالید — موسکیه

موسکیه : [أصبح یرتدی حلة من آخر طراز] الدکتور غیر موجود هنا ؟ آه . . الدکتور باربالید ؟ کأننی أری شبحاً وأیم الحق ، لقد رحلت عنا منذ أمد بعید .

باربالید : بهذا القدر بدا رحیلی بعیداً ؟ کلا . . فما رحلت إلا منذ ثلاثة أشهر .

موسکیه : هذا حق ، ثلاثة أشهر ، شیء مدهش [یقول بلهجة عطف] أنت مسرور فی لیون ؟

الدکتور : مسرور جداً . .

موسکیه : آه . . الحمد لله . . لعلك وجدت بها عیادة لها زبائنها المخلصون .

الدکتور : هیه . . وزدتهم بنسبة الثلث ، صحة مدام موسکیه طیبة ؟

موسكيه : أحسن من الأول بكثير . .

الدكتور : هل كانت مريضة ؟

موسكيه : ألا تذكر هذا الصداع الذى كانت تشكو منه فى أكثر الأيام ؟ لعلك لا تذكره لأنه لم يكن فى اعتبارك شيئاً مهماً ، ولكن ما كاد الدكتور كنوك يفحصها حتى اكتشف أنها تعانى من نقص فى إفرازات المبايض ووصف لها علاجا بالهرمونات كان مفعوله مدهشاً .

الدكتور : هل انقطع ألمها ؟

موسكيه : لم يبق أثر لهذا الصداع القديم ، أما ثقل الرأس الذى لا يزال يتابها فغير ناتج إلا من الإجهاد وهو ظاهرة طبيعية ، ذلك أننا أصبحنا مرهقين بالعمل وسأستعين بمساعد صيدلى ، فهل تعرف واحداً يعتمد عليه توصينى به ؟

الدكتور : كلا ، ولكن سأجعل طلبك فى بالى . .

موسكيه : آه ، لقد انقضت تلك المعيشة الحادثة التى نعيشها فى الماضى ، وما قولك أننى حتى وأنا آوى إلى فراشى فى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء لاأكون قد أنجزت تحضير كل الروشتات ؟

الدكتور : باختصار قد وقعت على منجم من الذهب..

موسكيه : أوه ، من المؤكد أننى ضاعفت دخلى خمس مرات ، وحاشا لى أن أشكو من ذلك ، ولكن لى أسبابا تحملنى على الرضا لأنى يا عزيزى الدكتور باربالبد أحب مهنتى وأحب أن أشعر أننى رجل مفيد وكثرة العمـــل تسرنى أكثر من فراغ يسلمنى إلى التفكير فى همومى ، مسألة مزاج ، ولكن ها هو ذا الدكتور قادم ..

المشهد الخامس

باربالبد – موسكيه – كنوك

كنوك : سلام عليكما ، صباح الخير يا دكتور

باربالید ، کنت أفکر فیك ، هل کانت رحلتك طیبة ؟

الدکتور : طیبة جداً . .

کنوك : هل جئت بسیارتك ؟

الدکتور : کلا ، بل بالقطار . .

کنوك : حسن ، جئت لقبض القسط : . ألیس کذلك ؟

الدکتور : المسألة أننی جئت ، ولا بأس أن أنتهز الفرصة . .

موسکیه : أترککما یا سادة [إلی کنوك] سأصعد إلی الحجرة رقم ١٥ . .

المشهد السادس

باربالید ـ کنوك

الدکتور : لن تتهمنی الآن أننی ضحکت علیك . .

کنوك : علی الأقل کانت هذه نیتك یا زمیلی العزیز . .

الدکتور : أنت لا تنکر أننی تخلیت لك عن عیادتی

وأنها عيادة تساوى الكثير . .

كنوك : أوه . . كان فى مقدورك أن تبقى عليها ، إذن لما ضايق أحدنا الآخر . . هل أنبأك مسيو موسكيه بالنتائج الأولى ؟

الدكتور : نعم . . حدثونى عنها . .

كنوك : [ينقب فى محفظة النقود] سأطلعك بصفة سرية بيننا على بعض الرسوم البيانية التى أعددتها ، وستجد لها بسهولة علاقة بالحديث الذى دار بيننا منذ ثلاثة أشهر . . لنتكلم عن العيادة ، أولا : هذا الخط البيانى يمثل عدد المترددين على العيادة أسبوعياً ، ويبدأ الخط من نقطة تمثل هذا العدد أيامك ، وكنت لا أعرف هذا العدد وقدرته بخمسة أشخاص :

باربالييد : خمسة أشخاص فى الأسبوع ؟ ليست مبالغة منك إذا قلت إنهم كانوا ضعف هذا العدد على الأقل يا زميلى العزيز .

كنوك : فليكن . . ها هى أرقامى أنا ، وهى

بطبيعة الحال لا تشمل الكشف المجانى
يوم الاثنين ، : منتصف أكتوبر : ٣٧ ،
آخر أكتوبر : ٩٠ آخر نوفمبر ١٢٨ ،
آخر ديسمبر : لم أجمع العدد بعد ، ولكن
الرقم سيزيد عن ١٥٠ ، وعلى كل حال فإننى
سأعدل تضييق الوقت عن الاهتمام بنمو
عدد الاستشارات ولن أعنى إلا بالمنتفعين
بعلاج طويل ، فإن الكشف فى العيادة
لا يستحوذ إلا على نصف اهتمامى ، فهذا
فن ساذج يشبه الصيد بالشـــبكة ،
أما العلاج الطويل فيشبه زرع صغار
السمك فى مياه الصيد .

الدكتور : عفواً يا زميلى العزيز . . هل أرقامك
دقيقة غاية الدقة ؟

كنوك : نعم . . غاية الدقة . .

الدكتور : معنى هذا أنه تأتّى فى أسبوع واحد أن
قبل ١٥٠ شخصاً من أهالى مركز سان
موريس تكبد مشقة الانتقال من منازلهم

للوقوف فى صف أمام باب العيادة وفى يدهم أجر الكشف ، لم يؤت بهم بالقوة أو بتأثير ضغط ما . .

كنوك : لم نكن فى حاجة للاستعانة لا بقوة البوليس ولا بقوة الجيش . .

الدكتور : يستعصى علىّ أن أجد لذلك تفسيراً .

كنوك : لنمض فى متابعة الخط البيانى الذى يمثل عدد المرضى تحت العلاج ، أول أكتوبر : كانت الحالة كما تركتها لى : عدد المرضى الذين يداومون علىّ العلاج فى منازلهم ، العدد : صفر . أليس كذلك ؟ [يبدى الدكتور بارباليد حركة تنم عن تبرمه بغير حماس بالموافقة] — آخر أكتوبر : العدد ٣٢ ، آخر نوفمبر : العدد ١٢١ ، آخر ديسمبر : سيتراوح العدد بين ٢٤٥ ، ٢٥٠ . .

الدكتور : يخيل إلىّ أنك تحسبنى ساذجاً . .

كنوك : أما أنا فلا أجد أنها أرقام عالية جداً ،

فلا تنس أنه يوجد بمركز سان موريس ٢٨٥٣ منزلا ، من قاطنيها ١٥٠٢ أسرة يزيد دخل كل واحد منها على ١٢,٠٠٠ فرنك .

الدكتور : وما شأن دخل الأسر فى الأمر ؟

كنوك : [يتجه إلى حوض الغسيل] لا مجـــال أن تفرض عبء مريض مزمن على أسرة لا يبلغ دخلها اثنى عشر ألف فرنك ، فهذا جور غشوم ، أما عن الأسر التى لها هذا الدخل ، فكذلك لا مجال للتفكير فى تطبيق خطة واحدة عليها ، فجعلتها من أربع درجات ، فالخطة المرسومة لأدنى الدرجات هى للأسر التى يتراوح دخلها بين ١٢,٠٠٠ ، ٢٠,٠٠٠ ، ولا تتضمن إلا زيارة واحدة كل أسبوع وخمسين فرنكاً تقريباً فى كل شهر لثمن الأدوية ، والدرجـــة العليا — درجة « اللوكس » — هى للأسر التى يعلو دخلها

على ٥٠٫٠٠٠ فرنك ، فهى تتضمن
أربع زيارات فى الأسبوع على الأقل ،
وثلاث مائة فرنك شهرياً للمصاريف
المختلفة : أشعة إكس ، علاج بالراديو
تدليك كهربائى .. تحليل . . الخ . . الخ .

الدكتور : ولكن كيف تعرف دخل زبائنك ؟

كتوك : [يبدأ غسل يديه بعناية فائقة] ثق أننى
لا ألجأ لمأمور الضرائب وحسناً أفعل ،
فعلى حين أننى أحصيت ١٥٠٢ دخلا
يزيد على ١٢٫٠٠٠ فرنك . فإن عددها
المقيد عند مأمور الضرائب لا يزيد على
١٧ فقط ، وأكبر دخل مبين فى إقرار
مقدم له لا يزيد على ٢٠٫٠٠٠ فرنك ،
وحقيقة هذا الرقم عندى هى ١٢٠٫٠٠٠
فلا تطابق قط بين إحصائياتى وإحصائياتك ،
وماذا يهم مأمور الضرائب ؟ لا تنس أنه
موظف حكومة . .

الدكتور : ولكن من أين تستقى معلوماتك ؟

كنوك : [يبتسم] من مصادر عديدة ، إنه عمل ليس بالهين شغلني طوال شهر أكتوبر بأكمله ، وأنني أصحح الأرقام باستمرار ، انظر إلى هذه ـ حلوة . . أليس كذلك ؟

الدكتور : كأنها خريطة للمركز ، ولكن ما معنى هذه العلامات الحمر ؟

كنوك : إنها خريطة التغلغل الطبي ، فكل علامة حمراء تدل على مكان مريض غير منقطع ، ولو اطلعت على هذه الخريطة قبل شهر واحد لكنت رأيت هنا بقعة ملونة بلون رمادي هي بقعة شابرير .

الدكتور : أفتدم ؟

كنوك : نعم هذا هو اسم القرية التي تقع وسط هذه البقعة ، وهي التي وجهت إليها أول عنايتي في الأسابيع الماضية ، أما اليوم فإن البقعة لم تختف بعد ولكنها قسمت أجزاء ، أليس كذلك ؟ ونظرتك

لا تتبين هـــذه البقعة إلا بعد تدقيق

[فترة صمت]

الدكتور : حتى لو أردت أن أخفى عنك دهشتى يا زميلى العزيز لما استعطت ، ومحال لى أن أشك فى نتائجك ، فقد سمعت تأييداً لها من كل جانب ، أنت رجل مدهش ، وقد ينكص غيرى من الأطباء عن أن يصارحك بمثل هذا الرأى وهم يبطنونه وإلا لما كانوا أهلا لحمل لقب دكتور ، ولكن أتسمح لى أن أفصح وأوجه إليك سؤالا واحداً ؟

كنوك : تفضل . .

الدكتور : إن ابتكرت خطة مثل خطتك وأصبحت فى قبضة يدى كما هى فى قبضة يدك وإن أصبح كل ما يبقى على بعد ذلك هو تطبيقها .

كنوك : نعم . .

الدكتور : ألا يساورنى شىء من تقريع الضمير ؟

[صمت] إنى أنتظر إجابتك . .

كنوك : يخيل إلى أن الجواب مرده إليك أنت . :

الدكتور : لاحظ أننى لا أقطع بشىء ، إنما أثرت مسألة حساسة جداً [صمت] . :

كنوك : حبذا لو أفصحت عن غرضك بوضوح أكثر .

الدكتور : ستقول إننى رجل متشدد معقد ، ولكن ألا تكون مصلحة المريض طبقاً لخطتك هى فى المحل الثانى بعد مصلحة الطبيب ؟

كنوك : يا دكتور باربالبد ، أنت تنسى أن هناك مصلحة أسمى من هاتين المصلحتين . .

الدكتور : وما هى ؟

كنوك : مصلحة الطب ذاته ، فهى المصلحة الأولى التى أهتم بها [صمت ، باربالبد مستغرق فى التفكير] .

باربالبد : نعم . . نعم . . نعم .

[وابتداء من تلك اللحظة إلى نهاية المسرحية تتحول إضاءة المسرح شيئاً فشيئاً إلى إضاءة

العيادات والمستشفيات ، ويغلب عليها كالعهد بها الأثرار الخفر والبنفسجية بدرجة تفوق أنوار دور بقية خلق الله] .

كنوك : أنت تسلمنى مركزاً يسكنه عدة آلاف يتفنون من الطب على الحياد لا قرار له ، فمهمتى هى أن أدفعهم إلى اتخاذ القرار ، أن أحملهم إلى أن يكون وجودهم فى الحياة وجوداً طبياً فأجعلهم يلزمون الفراش وأنتظر ما ينجم عن هذا الرقاد من سفور مريض بالســـل أو مرض بالاضطراب العصبى أو بتصلب الشرايين : إنسان مريض أيا كان ، ولكن إنساناً مريضاً على كل حال ، ولا شىء يضايقنى أكثر من هذا الذى لا هو طالع ولا نازل ، أى الرجل الذى لا يشكو من مرض كما يقال .

الدكتور : ولكنك لا تستطيع مع ذلك أن تجعل المركز كله يرقد فى الفراش . .

كنوك : [وهو ينشف يديه] هـــذه مسألة يمكن مناقشتها ، فإنى أعرف خمسة أفراد من أسرة واحدة مرضوا جميعاً ولزموا الفراش فى وقت واحد ، ومع ذلك لم ترتبك حياتهم ، واعتراضك هذا يذكرنى بهؤلاء الأساتذة فى علم الاقتصاد الذين يزعمون أن الحرب الحديثة لا يمكن أن تطول أكثر من ستة أسابيع ، والحقيقة أننا جميعاً تنقصنا الشجاعة ، ولا يجرؤ إنسان حتى ولا أنا على المضى إلى أقصى المدى فيجعل كل الأهالى يلزمون الفراش لانتظار سفور المرض ، فليكن ، إنى أوافقك على أنه ينبغى أن يظل هناك أناس أصحاء ليعنوا على الأقل بالآخرين أو ليؤلفوا قوة احتياطية وراء جيش المرضى المشغولين بأمراضهم ، ولكن الذى لا أحبه أن تنم الصحة عن التحدى فإن هذا كما ينبغى أن تعترف

أنت شيء لا يطاق ، لذلك نحن نغمض العين على بعض الحالات ، ونترك على وجوه بعض الناس قناع الصحة ، أما إذا جاءوا فيما بعد يتبخترون أمامنا ويهزأون بنا . فإني محق أن أغضب ، وهذا ما حدث هنا لمسيو رافالنس . .

الدكتور : آه هذا العملاق ؟ هذا الذى يفاخر بأنه يستطيع حمل حماته على ذراعيه الممدودتين ؟

كنوك : نعم ، إنه ظل يتحداني ثلاثة أشهر ثم وقع فى يدى . ؟

الدكتور : ماذا ؟

كنوك : والآن راقد فى الفراش لأن جعجعته بدأت تضعف عند الأهالى ذهنهم الطبى .

الدكتور : ولكن تبقى بعد ذلك مشكلة عويصة . .

كنوك : ما هى ؟

الدكتور : أنت لا تفكر إلا فى مهنة الطب ، ولكن ماذا عسى أن تكون عليه حالة

بقية المهن ؟ ألا تخشى أن يؤدى تعميم تطبيق خطتك إلى تراخ بين فى مختلف أوجه النشاط الاجتماعى مع أن بعضها له قيمته ؟

كنوك : ليس هذا من شأنى ، فأنا لا أشتغل إلا بالطب . .

الدكتور : صحيح أن المهندس وهو ينشئ سكة حديدية لا يسأل نفسه عما عساه يكون رأى طبيب القرية . .

كنوك : لافض فوك [يتجه إلى مؤخرة المسرح ويقترب من النافذة] تعـــال يا دكتور باربالياد ، ألق نظرة من هنا ، أنت تعرف المشهد الذى يطالع من يطل من هذه النافذة ، ولا شك أنه لم يفتك أن تتملى من هذا المنظر بين دورين من أدوار لعب البلياردو الذى كنت مغرماً به ، فأمامك على بعد ، ربوة أليجر التى ينتهى إليها حدود المركز ، وعلى اليسار قرية

مسكلا وتريبور ؛ وفى هذه الناصية ، لو لم تكن مساكن سان موريس قد تضخمت كالورم ، لكنا أبصرنا كل دساكر الوادى متتالية واحدة بعد أخرى . لا شك أنه لم يستأثر بنظرك إلا جمال المنظر الطبيعى الذى أنت به مشغوف ، كنت تراه كصعيد ريف غليظ الطبع لا تكاد الحياة تدب فيه ، وهأنذا اليوم أقدمه لك ، وقد تغلغل الطب فى أرجائه ، وهبت النيران التحتية لمهنتنا تقلقله وتسرى فى جنباته ، وفى أول يوم ركزت نفسى هنا — أى فى صبيحة يوم وصولى — كنت أبعد من أن يتملكنى الزهو إذ شعرت أن وجودى هنا لن يؤبه له كثيراً ، فستقف هذه الأرض الشاسعة تعرض عنى وعن أمثالى بوقاحة . أما اليوم فإنى مطمئن مستريح لمكانى بها كما يطمئن العازف المحنك لآلته ، وأمامك مائة

وخمسون منزلا قد لا تراها كلها بسبب البعد وستور الأشجار ، إن بها مائتين وخمسين حجرة ، فى كل واحدة منها شخص يؤمن بالطب ، أو بعبارة أخرى بها مائتان وخمسون فراشاً يتمدد فوق كل منها جسد يشهد بأن الحياة لها معنى هو بفضلى أنا معنى طبى : ويزداد المنظر بهاء بالليل حين تضاء الأنوار ، والفضل فى أغلب هذه الأنوار راجع إلىّ ، أما غير المرضى فيرقدون فى الظلمات ـ وقد أسقطت حسابهم ، ولكن المرضى قد استبقوا نور مصباح أو شمعة . وكل ما بقى على هامش الطب فقد خلصنى الليل منه ومن مضايقته وتحديه . وينقلب المركز كله بالليل إلى فلك أنا خالقه الدائم وهأنذا لم أحدثك بعد عن نواقيس الكنائس ، أعلم أن وظيفتها الأولى لهذا الخلق كله أصبحت أنها

تذكرهم بمواعيد تناول الدواء ، وقرعها هو نداء تعليماتى ، تصوّر أنه بعـــد بضع لحظات ستدق الأجراس معلنة حلول الساعة العاشرة ، والساعة العاشرة عند جميع مرضاى هى موعد قياس الحرارة للمرة الثانية من الشرج ، أى بعد بضع لحظات ستتخذ مائتان وخمسون ترمومترا أماكنها فى وقت واحد : :

الدكتور : [وقد غلب عليه التأثر يمسك ذراع كنوك] يا زميلى العزيز ، لى اقتراح أريد أن أقدمه إليك . :

كنوك : ما هو ؟

الدكتور : إن رجلا مثلك لا يجد مكانه الجدير به فى مركز بالريف بل تلزمك مدينة كبيرة . .

كنوك : سأفوز بها عاجلا أو آجلا : :

الدكتور : ولكن حذار ، أنت الآن فى ذروة

قواك ، ولن تمضى بضع سنوات حتى تكون قد وهنت ، هـذه هى تجربتى فثق بها :

كنوك : إذن ؟

الدكتور : إذن ينبغى لك ألا تنتظر : :

كنوك : هل تعلم مكاناً كالذى تعنيه تدلنى عليه ؟

الدكتور : مكانى أنا ؟ إننى أعطيه لك ، وما بعد ذلك برهان على إعجابى بك : :

كنوك : نعم ، وأنت ما هو مآلك ؟

الدكتور : أنا ؟ أنا سأقنع بالعمل من جديد فى سان موريس : :

كنوك : نعم : :

الدكتور : بل سأذهب إلى أبعد من ذلك : : فقد بقى عليك عدة آلاف من الفرنكات دينا لى فى ذمتك سأتنازل عنها هدية منى إليك : :

كنوك : نعم . . فى الحقيقة أنك لست غرًّا كما قد يظن بك . .

الدكتور : وكيف ؟

كنوك : أنت لا تحسن الإنتاج ، ولكنك تجيد البيع والشراء ، وهذه هى صفة التاجر : :

الدكتور : أؤكد لك .

كنوك : بل إنك فى هذه المسألة بالذات تثبت أنك تجيد أيضاً فهم النفوس ، فقد حسبت أن هيامى بالمال سينقضى لحظة تدفقه علىّ ؛ وأن تطبيق خطتى فى التغلغل الطبى على حى واحد أو اثنين من أحياء ليون ، كفيل أن ينسينى رسومى البيانية عن سان موريس ، آه ، نعم ، ليس فى نيتى أن أبقى هنا حتى تركبنى الشيخوخة ولكن شتان بين هذا وبين أن أرتمى على أول عرض يقدم إلىّ : :

المشهد السابع

كنوك – باربالييد – موسكيه

[موسكيه يخترق الصالة متسللا ليخرج ، يستوقفه كنوك]

كنوك : اقترب يا صديقى ، أتعرف ماذا يقترح علىّ الدكتور باربالييد ؟ أن نتبادل بيننا العيـــادتين فأذهب أنا إلى ليون ويعود هو إلى هنا .

موسكيه : هذه دعابة . .

كنوك : أبداً ، بل هو عرض جدى جداً . :

موسكيه : كأننى سقطت من شاهق ، ورفضت العرض بطبيعة الحال . .

الدكتور : ولماذا يرفضه الدكتور كنوك ؟

موسكيه : [موجهاً الحديث إلى الدكتور باربالييد] حـــين يكون البدل هو النزول عن بندقية ثمنها ألفان من الفرنكات نظير مسدس قديم

فإن من عادة العقـــلاء غير المغفلين أن يرفضوا مثل هـــذا البدل ، فكان فى إمكانك أن تقترح على الدكتور كنوك تبادل السيارات . .

الدكتور : أرجو أن تثق بأنى أملك فى ليون عيادة من الدرجة الأولى ، فقد خلفت فيها الدكتور مارلو . وكانت له فيها شهرة مستفيضة . .

موسكيه : هذا كلام كان يصح لو قيل منذ ثلاثة أشهر . فى ثلاثة أشهر ، يقطع السائر شوطاً فى الطريق هو للنازل أطول منه للصاعد [إلى كنوك] : ثم إن أهالى سان موريس يا عزيزى الدكتور لن يقبلوا أبدا . .

الدكتور : وما دخلهم فى هذه المسألة ؟ نحن لن نسألهم رأيهم . .

موسكيه : ولكنهم سيصارحونك به ، ولا أزعم لك أنهم سيعمدون إلى إقامة المتاريس فى وجهك ، فإنها ليست من عادة أهل هذا

البلد ، وشوارعهم غير مبلطة ولكن أهالى البلد يستطيعون تشييعك إليها [يشاهد مدام ريمى] وعـــلى كل حال فستحكم أنت بنفسك . .

[تدخل مدام ريمى تحمل صفاً من الأطباق]

المشهد الثامن

جميع من سبق ومدام ريمى

موسكيه : يا مدام ريمى إليك بخبر سار ، إن الدكتور كنوك سيغارقنا ، الدكتور باربالیـــد سيعود إلينا .

مدام ريمى : [تترك الأطباق تكاد تهوى من يدها ، ولكنها تلحقها قبل السقوط إلى الأرض وتحضنها كزهرة على صدرها] آه . . كلا . . كلا . . : أقول لكم إن هـــذا لن يحدث أبداً [إلى كنوك] اللهم إلا إذا خطفك ليلا بطائرة ، وإلا فإنى سأبلغ النبأ إلى أهل

البلد ولن يتركوك ترحل ، وما أسهل عليهم أن يخرقوا إطار سيارتك ، أما فيما يتعلق بك أنت يا مسيو باربااليد فإن كان هذا هو الغرض الذى جئت من أجله فيؤسفنى أن أبلغك أننى لا أجد لك حجرة خالية عندى ، وبالرغم من أننا فى عز الشتاء فلا مفر لك من النوم فى العراء [تتجه إلى منضدة لتضع أطباقها عليها]

الدكتور : [وهو فى شدة التأثر] طيب . . طيب : . إنها فضيحة مخجلة أن يكون هذا هو شعور هؤلاء الناس نحو رجل كرس لهم خمساً وعشرين سنة من حياته ، ما دام لم يبق فى سان موريس مجال إلا للدجالين فإنى أفضل كسب قوتى بشرف فى ليون ، أكسبه بشرف وبوفرة أيضاً ، وإذا كنت قد فكرت لحظة فى أن أسترجع عيادتى القديمة فلأن صحة زوجى وأقولها بلا خفاء لم يوافقها هواء المدن الكبيرة ، يا دكتور

كنوك دعنا نصفى الحساب فى أقرب وقت
لأنى سأرحل هذا المساء . .

كنوك : حاشا أن ترضى إهانتنا ، إن مدام ريمى
فى دهشتها لسماع خبر هو فى الحقيقة
غير صحيح وبسبب ما لحقها من ذعر أن
تسقط أطباقها ، لم تستطع ضبط لسانها ،
إن كلامها لم يحسن التعبير عن فكرها ،
وها أنت ذا ترى بنفسك أن مدام ريمى
بعد أن اطمأنت على سلامة أطباقها قد
استعادت سماحتها وأصبحت عيناها
لا تنطقان إلا بما تكنه لك هى وأهل سان
موريس جميعاً من عرفان بالجميل لهذه
الخدمة الصامتة التى كرست لها حياتك
بينهم طوال خمسة وعشرين عاماً . .

مدام ريمى : هذا أكيد ، وعهدنا به دائماً أنه رجل
طيب جداً ، وكان يؤدى واجبه بيننا كأى
طبيب آخر لو كان مكانه طالما كنا نحن

قادرين على أن نعيش فى غفلة عن مزايا الطب ، ولم يكن فى ذلك ضير إلا حين عم الوباء ، فلن تزعم لى أن طبيباً جديراً بهذا الاسم كان يترك هذا العدد الوفير من الناس يموت فى وباء الحمى الإسبانية .

الدكتور : طبيب جدير بهـذا الاسم ؟ أى كلام أصبحنا نسمعه ؟ أتظنين يا مدام ريمى أن يقدر طبيب جدير بهذا الاسم على مقاومة وباء عالمى ، شأنك فى هذا تقريباً شأن من يطلب إلى قوة غفر البلد مقاومة زلزال ، فصبراً يا مدام ريمى إلى الوباء القادم . لنرى إذا كان الدكتور كنوك سيكون أكثر نجاحاً منى . .

مدام ريمى : الدكتور كنوك : استمع إلى يا مسيو بار باليد إنى لا أعمد إلى مجادلتك فى مسألة تتعلق بالسيارات لأنى لا أفهم فى السيارات شيئاً ولكنى بدأت أفهم ما هو المريض ، إذن أستطيع أن أقول أن أناساً نجد الضعفاء

منهم لائذين بالفراش هم أقدر من غيرهم على أن يواجهوا بقدم ثابتة وباءك العالمى القادم ، وكما قال مسيو برنار منذ أيام فى محاضرته : المصيبة هى التعرض لمفاجأة تدهمنا كالرعد فى سماء صافية . .

موسكيه : يا عزيزى الدكتور إنى أنصحك ألا تثير هنا خلافات من هذا النوع : فإن مقام الطب والصيدلة قد توطد واستتب بيننا وشاع إدراكه بين الناس ، واسأل من شئت تجده خصما عنيداً لآرائك .

كنوك : ينبغى ألا تتوه فى جدل مذهبى فقد تختلف مدام ريمى والدكتور وباربالبد فى الرأى ومع ذلك تظل بينهما رابطة طيبة [إلى مدام ريمى] ألديك حجرة للدكتور باربالبد ؟

مدام ريمى : لا توجد حجرة . فكما تعلم لا يتأتى لنا أن نجد مكاناً لكل المرضى ، فإذا جاء

مريض فلعلنى أنجح فى تدبير مكان وأفعل المستحيل فإن هذا من واجبى . .

كنوك : ولكن إذا قلت لك إن الدكتور باربالبد ليس فى حالة تمكنه من السفر اليوم بعد الظهر ، ولابد له من الوجهة الطبية أن يستريح يوماً كاملا . .

مدام ريمى : إذن الأمر يختلف ، ولكن الدكتور باربالبد لم يأت لطلب الكشف عليه . .

كنوك : حتى ولو كان هذا غرضه ، فإن واجب الكتمان فى مهنتنا يقتضينى أن لاأصرح بذلك علنا . .

الدكتور : ما الذى ترمى إليه ؟ إننى سأرحل اليوم بعد الظهر وهذا كل ما فى الأمر . .

كنوك : [ينظر إليه] يا زميلى العزيز ، إننى جاد فى قولى لك كل الجد لاغنى لك عن أن تستريح لمدة ٢٤ ساعة ، إننى لاأنصحك بالسفر اليوم وعند اللزوم سأمنعك من الرحيل . .

مدام ريمى : حسن . . حسن يا دكتور ، إننى كنت لأعلم ذلك ، وسنجد لمسيو باربالبد فراشا فاطمئن ، هل ينبغى قياس حرارته ؟

كنوك : سنتحدث عن ذلك وشيكا [تنسحب مدام ريمى] .

موسكيه : أترككما برهة يا سادتى [إلى كنوك :] قد كسرت إبرة وسأذهب إلى الصيدلة لآخذ أخرى . .

المشهد التاسع

كنوك — باربالبد

الدكتور : قل لى . . هل هو مزاح [صمت قصير] على كل حال إنى شاكر لك إذ ليس مما ترتاح إليه نفسى أن أستأنف السفر هذا المساء لمدة ثمانى ساعات [فترة صمت] فقد ولّى الشباب وأنا أعلم بحالى [صمت] إن طريقتك فى الاحتفاظ بهيئة الجسد

لما يدعو للإعجاب ، فمنذ قليل كانت هيئتك تنم عن مكاشفتك لى بهذه الحقيقة

[ينهض] نعم فما نفعنى علمى ، إنك تمزح ، ولا بصرى بخفايا أساليب الطبيب مع مريضه ، نعم كانت لك هيئة ونظرة وشعرت كأنك نفذت بهما تتفحص أعمق أحشائى ، آه هذه مقدرة خارقة . .

كنوك : وماذا أفعل ؟ إن هذا يحدث لى رغماً منى بعض الشىء ، فما أكاد أجتمع بإنسان إلا وجدتنى لا أتمالك نفسى من أن تتحرك لتشخيص علتى تشخيصاً مبدئياً ، حتى لو كان عملى هذا لغواً خالصاً وجهداً ضائعاً كله ولا مسوغ له ! ! [يسير إليه وكأنه يكاشفه بسر] حتى بلغ بى الحال أننى أصبحت منذ زمن أتحاشى النظر فى المرآة : .

الدكتور : ولكن هذا التشخيص ما تعنى به ؟ هل هو تشخيص عابث أم . . . ؟

كنوك : ما معنى وصفه بأنه تشخيص عابث ؟
لقد قلت لك إننى إذا طالعت وجه إنسان ،
فإن نظرتى ترتمى رغماً عنى وبدون تفكير
منى على علامات ، قد تخفى على العين حالة
الجلد والشعر وإنسان العين وسرعة التنفس
وعلامات أخرى من هذا القبيل ، وعندئذ
أجد جهاز استخلاص التشخيص المستقر
فى أعماقى يعمل من تلقاء ذاته ، وينبغى
لى أن أضبط نفسى وإلا أصبح طبعى هذا
سخيفاً . . !

الدكتور : ولكن . . المسألة . . اسمح لى . . إننى أصر بطريقة بلهاء قليلا ، ولكن لى دوافعى . . حينما قلت لى إننى فى حاجة إلى راحة يوم كامل ، هل كان قولك من قبيل المعابثة أم . . . ؟ ومرة أخرى أقول إننى إذا كنت أصر على هذا السؤال فإن مسلكى هذا يرجع إلى هموم قد تكون تساورنى ، فأنا لم يفتنى منذ زمن أن ألحظ أشياء فى نفسى ، فإنى متلهف جداً ولو من الوجهة النظرية البحتة أن أعرف هل جاءت ملاحظاتى مطابقة لنتائج هذا التشخيص غير الإرادى الذى ذكرت أنه أصبح من طبعك . .

كنوك : يا زميلى العزيز فلنؤجل هذا البحث الآن [قرع أجراس] الساعة تدق العاشرة ، ينبغى لى أن أقوم بجولتى ، وسنتناول طعام الغداء معاً إن أردت أن تبرهن لى على صداقتك أما عن حالتك الصحية ،

وما ينبغى اتخاذه بشأنها فسنتحدث عنه بعد الظهر على مهل فى عيادتى . .

[يبتعد كنوك – تنتهى الساعة من دق العاشرة – باربالايد غارق فى التفكير وقد تهاوى على مقعد – يدخل سيبيون والخادمة ومدام ريمى ، يحملون أدوات طبية مألوفة . ويسيرون متتابعين فى صف واحد تنيرهم أضواء عالم الطب]

[ستار]